المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

من مكتبة القرآن

رجال

أنزل الله فيهم قرآنا

الجزء الثامن

تأليف

د. عبد الرحمن عميره

دار اللواء
للنشر والتوزيع



رجال

أنزل الله فيهم قرآنا

الجزء الثامن

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

دار اللواء

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ شارع الملك فيصل
ص. ب : ٢٨٥٦ هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤ ـ برقياً : نشر دار

مُقـــدّمَة

..كان من عناية الله لنا وحسن توفيقه أن أعاننا على أن نقدم للناطقين بالضاد بعامة ، والأمة الإسلامية على وجه الخصوص . الجزء الثامن من كتابنا « رجال أنزل الله فيهم قرآناً » .

ويخيّل إلينا أننا قلنا في مقدمة الأجزاء السابقة ما فيه غنى وكفاية ، من توضيح هدفنا ، والغاية التي نرجوها من وراء تأليفنا لهذا الكتاب .

ونحب أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى أن بعض الشخصيات التي يتضمنها هذا الجزء شاركت في الحروب الطاحنة بين أبناء الأمة الإسلامية .

الحروب التي كان لها أكبر الأثر في توقف الفتوحات الإسلامية ، وانحسار المد الإسلامي عن بعض البلدان .

ونقول الآن بعـد مضي أربعة عشر قرناً على حدوثها ، إنها فتنة وقى الله المسلمين شرها .

وما كادت تنتهي وتتوقف ، حتى عادت الجيوش الإسلامية مرة أخرى إلى الانتشار في أربعة أركان الأرض .

يقدمون الأمن بعد الخوف .
وينشرون النور بعد الظلام .
ويرفعون كلمة التوحيد عالية خفاقة .

ومن أجود الأشياء التي قرأتها وأنا أفتش وراء الأسباب التي أدت إلى قيام هذه الفتنة ، هـــذا الحوار الذي دار بين الزرقاء بنت عدي التي كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة على جيش الشام وبين معاوية ، فأمر أن تسير إليه وأن تكرم . حتى إذا جاءت قال معاوية :

« كيف حالك يا خالة ، وكيف مسيرك إلينا ؟..
قالت : خير مسير .
قال : ما حملك على أن تحرضي علينا ؟..
قالت : يا أمير المؤمنين ، قد مات الرأس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .
قال : هل تحفظين ما قلت ؟..
قالت : لا .

قال : لله أبوك لقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس وإن الكواكب لا تضيء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، إنه لا يستوي المحق والمبطل ، (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون)فالنزال النزال، والصبر الصبر ، ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء » .

يا زرقاء أليس هذا تحريضك ؟..
قالت : لقد كان ذلك .
قال : لقد شاركت علياً في دم سفكه .
قالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك يبشر بخير ويسر خليله .

قال : أوَقد سرك ذلك ؟..

قالت : والله لقد سرني وأنى لي بتحقيقه .

قال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له في حياته ، فاذكري حاجتك ؟..

قالت : يا أمير المؤمنين: إني آليت على نفسي: لا أسأل أحداً بعد علي حاجة .

قال : لقد أشاروا علي بقتلك ؟؟..

قالت : لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته .

قال : كلا لنعفون عنك .

قالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء ، وأعطى من غير مسألة .

فأعطاها كسوة وأقطعها ضيعة .

نسأل الله العلي القدير أن يوفق الأمة الإسلامية إلى خير دينها ودنياها وأن يعيننا في إتمام بقية الأجزاء الباقية إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

الرياض في ١٠ / ١ / ١٤٠٠ هـ

د . عبد الرحمن عميره
أستاذ مشارك بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الآية الأولى[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك
ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن
لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك
وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ
الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴿١٧٦﴾

صدق الله العظيم

سورة النساء : آية رقم ١٧٦

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والحديث والسير نزلت هذه الآية في جابر بن عبدالله رضي الله عنه :

قال ذلك الإمام الطبري في تفسيره جـ ١ ص ٤١ .

وذكره ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ٥٩٢ .

وقال القرطبي في التفسير أيضاً جـ ٦ ص ٢٨ .

وقاله صاحب تفسير الخازن جـ ١ ص ٥٢٤ .

وقاله ابن حجر في فتح الباري جـ ١ ص ٢٦٨ .

باب : يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة .

وذكره صاحب معالم التنزيل جـ ١ ص ٥٢٤ .

فمن هو جابر بن عبد الله ؟..

جابر بن عبد الله

رضي الله عنه

جابر بن عبد الله
رضي الله عنه

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام .

صحابي من فقهاء الصحابة .

مولده بالمدينة حيث الحدائق الجميلة الفسيحة ، والبساتين المعطاء الكثيرة . والأشجار المنتشرة هنا وهناك ، فوّاحة بالعطر ، مليئة بالثمر . تسر العين ، وتفرح القلب ، وتملأ الحياة نوراً وبهاء .

وكان لوالده مزرعة خارج المدينة يصحبه معه كلما ذهب إليها ، وأحب الطفل هذا المكان وأصبح يتردد عليه كثيراً ، وكان يجلس في هذه المزرعة يتأمل خرير الماء الخارج من أكنة بعض الصخور المحيطة بالمزرعة ، ويتابعه وهو ينساب في هوادة ويسر تحت شجيرات التين ، وكروم العنب ، وما تكاد الميــــاه تغمر تربتها حتى تترعرع الأشجار ، وتتفتح الزهور ، ويُملأ الكون كله بنسمات عليلة وروائح ذكية .

.. وفي يوم من الأيام شاهد الفتى الطلعة والده يتجهز لرحلة بعيدة ، وما كاد ميعاد تحرك القافلة يأذن بالرحيل ، حتى جلس الوالد عبد الله إلى ابنه جابر يوصيه بالمزرعة خيراً ، ويطلب منه أن يكون نعم الابن المطيع لأوامر أمه حتى يعود من

هذه الرحلة ، وسيكافئه عند عودته بالملابس الجديدة وكل ما تهواه نفسه من لعب وحلوى .

ولكن الفتى يرفض كل ما يعرضه عليه والده – ويتشبث به ، ويلحُّ في أن يصحب والده في تلك الرحلة – وهو ليس بالصغير الذي يخشى عليه تعب الطريق ومشقات السفر .

وفشلت كل الأمور في رد الفتى عن طلبته – وأمام هـذا الإصرار لم يكن أمام الوالد – إلا النزول على رغبة هذا الابن واصطحابه معه .

وسارت القافلة تسرع السير إلى مكة .

إنها لم تكن قافلة من قوافل التجارة .

ولم تكن تحمل كوكبة من الفرسان الذين يريدون الغارة والاستيلاء على الأرض والمرعى .

ولم تكن قافلة تتجه إلى بعض النجوع القريبة ، لتحمل عروساً إلى عريسها بين دقات الدفوف وألحان الرجز .

ولكنها والحق يقال كانت قافلة من نوع جديد . فمجموعة من رجال الأنصار ونسائها .. سمعوا بدعوة الرسول ﷺ ، ووعت صدورهم بعض آيات القرآن الكريم يرتلها لهم سفير الرسول إليهم – مصعب بن عمير – رضي الله عنـه ، فأعلنوا إسلامهم ونبذوا أصنامهم ، وعاشوا في انتظار اليوم الذي يلتقون فيه مع رسول الله ﷺ .

وسارت القـــافلة – حتى لاحت أمامها مشارف مكة – فأناخوا قوافلهم وأرسلوا رسولهم لمقابلة رسول الله ﷺ، وعاد رسولهم ليخبرهم أن الرسول ﷺ سيلتقي بهم في هذه الليلة في مكان حدّده لهم .

.. وجاء ميعاد اللقاء، وشاهد الفتى جابر رسول الله ﷺ وهو يصافح هؤلاء

الأنصار ويبارك قدومهم، فسرى نور الإيمان في قلبه، واستقرّ حب هذا الرجل في قلبه وأصبحت صورته لا تفارق مخيلته ..

وانقضْ اللقاء،وتمت البيعة بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار الذين سيكون لهم دور في تاريخ هذه الدعوة ، وسيحملونها مع إخوتهم المهاجرين إلى كل بقاع العالم يدعون إلى كلمة التوحيد وإلى نبذ عبادة غير الله ، والناس جميعاً سواء لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح .

وفي طريق العودة إلى المدينة أخذ الفتى جابر يلاحق والده بأسئلته : مَن هذا الرجل يا أبتي الذي صافح كل الرجال، وكان مشرق الوجه ، صادق العبارة طيب الرائحة ؟.

وقال له والده : إنه رسول الله ﷺ يا جابر .

ومن الله الذي أرسل هذا الرسول ؟..

وقال الوالد : إنه يا بني الذي خلق السماوات والأرض . والذي يأتي بضوء النهار فنذهب إلى المزرعة ، ويرسل ظلمة الليل فنعود إلى مضاجعنا ..

الابن : لا أفهم كثيراً مما تقول يا والدي ؟؟

– أزيدك إيضاحاً يا بني .. أترى المياه التي تأتينا من كن الجبل ؟ من الذي يرسلها ؟..

– لا أعرف يا والدي ؟..

– أرأيت البذرة التي وضعتها في التربة من أيام وسقيناها سوياً بالمـــاء.. ثم خرجت نبتة يانعة من التربة .. نعم يا والدي .

– من الذي أخرج النبتة ؟..

– لا أدري يا والدي ..

–أترى صفحة السماء في السماء وهي مليئة بالكواكب والنجوم ترسل ضياءها

وترشد المسافرين وتحدد أوقات الغادين ؟..

– نعم يا والدي .

– من الذي علقها على صفحة السماء فلا تسقط ورتبها فلا تختلف؟

– لا أدرى يا والدي ..؟؟

– يا بني الذي فعل ذلك هو الله سبحانه وتعالى،الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

إنه الله سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الواحد الأحد ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار .

انطق يا بني بما نطق به أبوك قبلك :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

ونطق الفتى بكلمة الشهادة .

ووقفت القافلة للراحة والتزود بالماء، وأخذ الوالد ابنه إلى موضع الماء فتطهر وتوضأ ، وأصبح إنساناً جديداً يتحلى بمكارم الأخلاق ويدين بعقيدة الإسلام .

وسارت الحياة بالفتى جابر، يذهب إلى المزرعة في الصباح ويعود في المساء ، يجلس مع أترابه ، يتحدثون ويتجادلون ، ويترقبون وصول الرسول ﷺ الذي تستعد لاستقباله المدينة بأسرها رجالاً ونساء ، شباباً وأطفالاً . حتى جاء اليوم الأغر يوم الهجرة الأعظم الذي وطئت فيه أقدام الرسول ﷺ أرض يثرب .

ومن ذلك التاريخ ، أصبح للحياة طعماً جديداً لدى كل الذين تابعوا محمداً ﷺ .

لقد عرفوا أن الحياة رحلة قصيرة في عمر الزمن ، بعدها تأتي الحياة الأبدية حياة الخلود .

وآمنوا أن الله سبحانه وتعالى أوجدهم لغاية : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وسخّر لهم الأرض والسماء والشمس والقمر . (كل في فلك يسبحون) وأعطاهم من نعمه الظـــاهرة والباطنة ما لا يحصى ولا يعد : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

كل هذه المعاني الطيبة كان الفتى جابر يسمعها صباح مساء ، وتستقرُّ في عقله وقلبه لا تفارقه .

حتى جاء يوم – شاهد الفتى والده – يشحذ سيفه ، ويجهز مطيته لأمر ما .

واقترب الفتى من والده يسأله عن الخبر ، فأخبره أن قريشاً أقبلت بخيلها ورجلها ، تريد حربنا والقضاء على دعوتنا .

وقال الفتى : أذهب معك يا والدي ..

وقال الأب : ليس هذا لي يا بني ، ولكنه لقائد الجيش رسول الله ﷺ ، الذي يأمر بأخذك أو بردّك حتى يكتمل عودك وتقوى يدك على حمل السيف ومقارعة أعداء الله .

هل حضر جابر غزوة بدر ؟..

بعض الروايات تجيز ذلك ، والبعض الآخر ينفي أن جابراً حضر غزوة بدر .. وإذا لم يكن حضرها فلا شك شارك المسلمين فرحتهم ونصرهم ، ومنى نفسه بمعركة أخرى يشارك المسلمين فيها مجالدة أعداء الله وأعداء دينه .

وجاءت غزوة أحد ، وجلس عبد الله إلى ابنه يقول له : « يا بني إني أرجو أن أكون في أول من يصاب غداً ، فأوصيك ببنات عبد الله خيراً » .

فذهب جابر إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، إن أبي خلفني على أخوات لي سبع وقال : يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا

رجل فيهن ، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك .

فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه ، ودارت رحى المعركة . وكان للكفر فيها جولة، وقتل عبد الله ، يقول جابر : لما قتل أبي يوم أحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه، وأبكي، وجعل أصحاب الرسول ﷺ ينهونني ، والنبي ﷺ لا ينهاني ، قال : وجعلت عمتي فاطمة بنت عمرو تبكي عليه .

فقال النبي ﷺ : « أبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » .

ويقول جابر أيضاً : إن رسول الله ﷺ لما خرج لدفن شهداء أحد قال :

« زملوهم بجراحهم فإني أنا الشهيد عليهم . ما من مسلم يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دماً ، اللون لون الزعفران والريح ريح المسك » .

قال جابر : وكفن أبي في نمرة واحدة ، وكان يقول ﷺ : « أي هؤلاء كان أكثر أخذاً للقرآن » ؟..

فإذا أشير له إلى الرجل قال : « قدموه في اللحد قبل صاحبه » .

قالوا : وكان عبد الله بن عمرو بن حرام أول قتيل قتل من المسلمين يوم أحد، قتله سفيان بن عبد شمس أبو أبي الأعور السلمي . فصلى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة ، وقال رسول الله : « ادفنوا عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من الصفاء » .

وقال : « ادفنوا هذين المتحابين في قبر واحد » .

فدفنا في قبر واحد .

وكان قبرهما مما يلي المسيل، فدخله المسيل فحفر عنهما، وعليهما وعليهما نمرتان،

وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه ، فيده على جرحه فأميطت يده على جرحه فانبعث الدم ، فردّت يده إلى مكانها فسكن الدم .

قال جابر : فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم ، وما تغير من حـــاله قليل ولا كثير .

فقيل له : فرأيت أكفانه ؟.. قال : إنما كُفّن في نمرة خُمِر بها وجهه ، وجعل على رجليه الحرمل فوجدنا النمرة كما هي ، والحرمل على رجليه على هيئته وبين ذلك ست وأربعون سنة . فشاورهم جابر في أن يطيب بمسك ، فأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا :

« لا تحدثوا فيهم شيئاً » .

أهناك من ينكر ذلك ؟.. أيستطيع إنسان أن يقول كيف يبقى الميت نصف قرن ولم تأكله الأرض ؟..

إن هــذا ما حدث ، ولا يماري في ذلك إنسان مسلم يفقه دينه ويقرأ قول الله تعالى :

(ولا تحسبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ الله أمواتاً بَلْ أحياءٌ عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من اللهِ وفضل وأن الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين) [1] .

ويعيش جابر في هول الذكرى حزين القلب، منكسر الفؤاد، لا تفارق اللوعة فؤاده ، ولا ترف البسمة على شفتيه . ويراه رسول الله ﷺ على هذه الحال التي يجب ألا يقيم عليها مسلم ، فيقول له : يا جابر مالي أراك منكسراً مهتماً ؟..

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٦٩ - ١٧١ .

يقول جابر: قلت يا رسول الله . استشهد أبي وترك عيالاً وعليه دين . قال: « أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك » .

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : « إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً ، وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب ».

فقال : يا عبدي تمن أعطك .

قال : يا رب تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية .

فقال الرب تعالى ذكره : إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون .

قال : يا رب فأبلغ من ورائي . فأنزل الله تعالى :

(ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون).

ومن هـذا التاريخ أخذ جابر يلازم رسول الله ﷺ لا يفارقه في حضر ولا سفر ، ويحدثنا جابر حديثاً عن صلاة الخوف قائلاً :

« غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلمـــا قفل مع أصحابه أدركتهم القائلة في واد كثير العضاه فنزل النبي ﷺ ، وتفرّق الناس يستظلون بالشجر ونزل ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه .

قال جابر : إن رجلاً من بني محارب يقال له غورث ، قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمداً ؟.

قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟..

قال : أفتك به .

قال جابر : فجاء وسيف رسول الله ﷺ معلـّق بشجرة ، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فسله .

فقال لرسول الله : أتخافني ؟..

فقال النبي : « لا » .

قال : فمن يمنعك مني ؟..

قال : « الله يمنعني منك » .

قال : فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ ، فأغمد السيف وعلقه .

قال : فنودي بالصلاة فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين .

قال : فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان .

وكانت هذه الواقعة في غزوة ذات الرقاع في العام الرابع الهجري ، وقفل الرسول ﷺ راجعاً إلى المدينة .

قال جابر رضي الله عنه : كان معي جمل ضعيف في تلك الغزوة ، فأخذت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف ، حتى أدركني رسول الله ﷺ .

فقال : « مالك يا جابر » ؟..

قال : قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا .

قال : « أنخه » .

قال : فأنخته وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال : « أعطني هذه العصا من يدك » أو « اقطع لي عصا من شجرة » .

قال : فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بهـــا نخسات ثم قال : « اركب » فركبت . فخرج والذي بعثه بالحق يسابق ناقته مسابقة .

قال : وتحدث مع رسول الله ﷺ فقال لي :

« أتبيعني جملك هذا يا جابر » ؟..

قلت : يا رسول الله ، بل أهبه لك .

قال : « لا ، ولكن بعنيه » .

قلت : فسُمْنيه يا رسول الله .

قال : قد أخذته بدرهم .

قلت : لا إذن تغنيني يا رسول الله .

قال : فبدرهمين .

قلت : لا .

قال : فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية .

قلت : أفقد رضيت يا رسول الله ؟..

قال : نعم .

قلت : فهو لك .

قال : قد أخذته ، ثم قال : يا جابر ، هل تزوجت بعد ؟..

قلت : نعم يا رسول الله .

قال : أثيباً أم بكراً ؟

قلت : بل ثيباً .

قال : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك » ؟.

قلت : يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعاً، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن .

قال : أصبت إن شاء الله ، أما إنا لو قد جئنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذاك وسمعت بنا فنفضت نمارقها .

قلت : يا رسول الله ما لنا من نمارق .

قال : إنها ستكون .

فإذا أنت قدمت فاعمل عملا كيساً .

قال : فلما جئنا «صراراً» أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت،وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا .

قال : فحدثت المرأة الحديث ، وما قال رسول الله ﷺ .

قالت : فدونك سمع وطاعة .

قال : فلمـــا أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنختة على باب « مسجد » رسول الله ﷺ .

قال : ثم جلست في المسجد قريباً منه .

قال : وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال : « ما هذا » ؟

قالوا : يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر .

قال : فدعيت له .

فقال يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك .

ودعا بلالاً فقال له :

« اذهب بجابر فأعطه أوقية » .

قال : فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً .

قال : فوالله ما زال ينمى عندي ويرى مكانه من بيتنا ، حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا ، يعني يوم الحرّة .

أرأيتم ما فعل الرسول ﷺ مع أحد أصحابه إنه معهم في فرحهم وسرورهم في حزنهم وآلامهم ، يسأل عن دابته الضعيفة ، ويسأل عن تأخره عن الركب.

ويعرف حاجته إلى المال وأنه قد قتر عليه في الرزق فيساومه على دابته ، وتقوم المبايعة والمقايضة بين القائد والمقود،بين الرسول وصاحبه ، ترفرف عليهم روح الأخوة الخالصة والإيمان العميق .

وبهذه السماحة بين القائد والمقود ، وبهذه الأخوة التي فيها يؤثر كل أخ أخاه على نفسه قام مجتمع الإيمان ، مجتمع الإحسان ، المجتمع الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً في تاريخها الطويل .

.. فأحدهم يبذل كل ماله في سبيل الله،وعندما يسأل عن ماذا ترك لأولاده الصغار ؟..

يقول : تركت لهم الله ورسوله .

وثانيهم : يخرج لوداع الجيش المسافر على بركة الله لنشر دين الله ، ويقول للجنود :

« سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا » .

وثالث : يحول بين أبيه وبين دخول المدينة – الذي أصبح أن يكون عليها ملكاً متوّجاً لولا مجيء الإسلام – ويقول لوالده : محال أن تدخلها حتى يأذن الله ورسوله .

ورابع وخامس .. وغير ذلك كثير ، فأين جابر وسط هذا المجتمع الفريد؟

يقول جابر رضي الله عنه : علم الرسول ﷺ بخروج قريش إليه ، بعد أن أجمعوا أمرهم على قتاله ، فأمر بضرب الخندق حول المدينة ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر . وأيضاً عندما اعترضت المسلمين صخرة كبيرة يقول جابر : فشكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به،ثم نضح ذلك الماء على تلك الصخرة ، فيقول من حضرها :

« فوالذي بعثه بالحق نبياً لانهالت حتى عادت كالكثيب لا ترد فأساً ولا مسحاة .

يقول جابر رضي الله عنه : فاتجهت إلى بيتي وكانت عندي شويهة غير ثمينة، فقلت : لو صنعناها لرسول الله ﷺ

قال : فأمرت امرأتي ، فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله ﷺ .

قال : فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق .

قلت : يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير .

فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي .

قال جابر ذلك – وكان يحب أن ينصرف معه رسول الله ﷺ – وحده .

ويكمل جابر حديثه فيقول :

فلما قلت له ذلك قال : نعم .

ثم أمر صارخاً فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله .

فقلت : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

فأقبل رسول الله ﷺ ، وأقبل الناس معه . قال : فجلس وأخرجناها إليه .

فبرك وسمى « الله » ثم أكل، وتواردها الناس كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها .

إن الرسول ﷺ لا يأكل وحده ، ولا يفضّل نفسه على أصحابه وهو وهم كما وصفهم خالقهم سبحانه وتعالى بقوله :

(مُحمدٌ رسولُ الله والَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّار رُحماءُ بينَهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغُون فَضْلاً من اللهِ ورضواناً سِياُهمْ في وُجووهِهِمْ من أَثَرِ السُّجُودِ) .

ثم ماذا ؟ مات الرسول ﷺ ، ثم مات الخليفة أبو بكر ، ثم الخليفة عمر بن

سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

الخطاب رضي الله عنه ، وجابر مع هؤلاء الصحابة ، نعم العون ونعم الرفيق في الحرب والسلم .

وسارت به الحياة . !

يودع كل يوم حبيباً أو رفيقاً .

فجلس في بيته : يتذاكر كتاب الله ، ويتدارس سنّة الرسول ﷺ وينشر هدي النبي الكريم بين جماعـة المسلمين حتى جاء الأجل المقدر ، ليلحق جابر بصحابته الكرام في جنة عدن عند مليك مقتدر .

رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين .

قال ابن جرير : حدثنا مؤمل بن هشام أبو هشام ، قال : حدثنا إسماعيل ابن ابراهيم ، عن هشام الدستوائي . قال :

حدثنا أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال :

اشتكيت وعندي تسع أخوات لي أو سبع (أبو جعفر الذي يشتكي) فدخل على النبي ﷺ ، فنفخ في وجهي فأفقت وقلت: يا رسول الله،ألا أوصي لأخواتي بالثلث ؟..

قال : أحسن .

قلت : الشطر ؟..

قال : أحسن ، ثم خرج وتركني ، ثم رجع إليَّ فقال : يا جابر إني لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل في الذي لأخواتك ، فجعل لهن الثلثين.

قال : فكان جابر يقول : أنزلت هذه الآية فيّ .

« يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » .

وحدثني المثنى قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال :

مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر وهما ماشيان ، فوجدوني قد أغمي عليّ . فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب علي من وضوئه فأفقت فقلت :

يا رسول الله : كيف أقضي في مالي ؟.. أو كيف أصنع في مالي ؟.. وكان لي تسع أخوات . ولم يكن له والد ولا ولد .

قال : فلم يجبني شيئاً حتى نزلت آية الميراث : (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) إلى آخر السورة .

قال ابن المنكدر: قال جابر : إنما نزلت هذه الآية فيّ ، وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول : « إن هذه الآية آخر من نزل من القرآن »[1] .

ويقول الشيخ علاء الدين المعروف بالخازن : (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) ، نزلت في جابر بن عبد الله الأنصاري . عن جابر بن عبد الله قال : مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي عليّ . فتوضأ النبي ﷺ ثم صب عليّ من وضوئه فأفقت .

فإذا النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله كيف أصنع في مالي ؟.. كيف أقضي في مالي ؟..

فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) .

وفي رواية فقلت يا رسول الله : إنما يرثني كلالة . فنزلت آية الميراث . قال شعبة فقلت لمحمد بن المنكدر : يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة،قال : هكذا نزلت .

وفي رواية للترمذي : وكان لي تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث .

ولأبي داود قال : اشتكيت وعندي سبع أخوات ، فدخل عليّ رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي فأفقت .

---

(١) راجع تفسير الطبري جـ ٦ ص ٤١ .

فقلت : يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين ؟..

قال : حسن .

قلت : بالشطر .

قال : أحسن .

ثم خرج وتركني، فقال يا جابر : لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك فجعل لهم الثلثين .

قال : فكان جابر يقول : أنزلت هذه الآية : ويستفتونك « فيّ » [1] .

وقال ابن كثير في تفسيره : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله قال :

دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل . قال : فتوضأ ثم صب علي أو قال : صبوا عليه . فعقلت فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة ، فكيف الميراث؟.

فأنزل الله آية الفرائض ، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ، وروى الجماعة من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر به ، وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث [2] :

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) [3] .

---

(١) راجع تفسير الخازن ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير المجلد الثاني ص ٤٦٥ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٧٦ .

تـــذييل ...

الأمر الذي يدعو إلى الدهشة والتساؤل أن الصحابي الجليل جابر بن عبدالله رضي الله عنه ، ما كاد يفيق من إغمائه حتى كان أول شيء يفكر فيه هو المال الذي بين يديه ..

المال الذي يملكه ولكنه سيؤول إلى الورثة – لهذا طلب من الرسول ﷺ – أن يبين له طرق تقسيمه حتى يتخلص منه .

..والحقيقة أن المال الذي يجمعه الإنسان بطرق شتى طوال حياته – وراعى فيه حق الله وحق عبيده أم لم يراعي – نقول: إن هذا المال في الساعات الأخيرة من حياة الإنسان يكون عبئاً ثقيلاً لا يستطيع التخلص منه .

.. لأن المال يغري – والدنيا حلوة خضرة – حتى إذا بلغت الحلقوم تذكر الإنسان فقط أنه لا يستطيع أن يحمل معه هـذه الكنوز وتلك العقارات إلى الدار الآخرة .

سيترك الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء .

سيترك القصور العالية والمنازل الفسيحة .

سيترك الذهب والجواهر ، سيترك كل شيء ولا يأخذ معه شيئاً ، إذن هي حسرة وندامة ، هي قلق وضيق ، هي شيء لا يحتمل ، ويتساءل بينه وبين نفسه

والورثة يحيطون به ، ويتعجلون خروج روحه ، وغروب شمسه ..

هل هؤلاء الورثة الذين يرثون هذه الثروة ويتقاتلون عليهـــا بعد موته ، سيقومون بها كما كان يقوم .

هل سيؤدون بها حق الله وحق عبيده ؟.. هذا إذا كان رجلاً صالحاً ، فإذا كانت الثانية – يصور له شيطانه – أن أموال الآخرين التي أخذها منهم بالحيلة أو غصباً وظلماً سترد لهم بالتالي – ستعود من حيث أتت – وسيصلى هو عليها ناراً حامية .. (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) .

ليس هـذا فحسب ، ولكن الشيطان الذي أغراه بالسلب والنهب سابقاً يوسوس له بالحسرة والندامة .

هل الورثة ستكون لهم القدرة والدأب الذي كان لديه من المحافظة على هذه الأموال وتنميتها كما كان يفعل ؟..

أم أن هؤلاء الورثة سيوسعون بها على أنفسهم ويصرفونها في مطاعم الحياة وملذاتها بعد أن كان مضيقاً عليهم وعلى نفسه ؟..

هل ستكون هذه الأموال عامل سعادة وهناء لبنيه وأولاده وهم أقرب الناس إليه ، وأحبهم إلى قلبه ، أم ستكون الأخرى ويحرفهم هـذا المال عن الطريق السليم إلى طريق الشيطان ؟..

.. إن أخذ أموال الغير بغير حق ، كان يعبر القرآن الكريم عنـه دائماً « بالأكل » .

يقول الله تعالى :

(ولا تَأْكُلوا أموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكام لِتأْكُلوا فرَيقاً مِن أموالِ النَّاسِ بالإِثمِ وأَنْتُم تَعْلَمُون) [1] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٨ .

ويقول تعالى :

(وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خافوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقولوا قَوْلاً سديداً . إنَّ الذين يأكُلون أموالَ اليَتَامى ظُلْماً إنما يأكلونَ في بُطونِهم ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعيراً)[1] .

ولماذا الأكل بالذات.. لأن هذه الأموال لها شهوة كشهوة الطعام والشراب.. وكم يشتهي الإنسان من أطعمة؟. وكم يلقي في بطنه من فواكه ولحوم وغير ذلك؟

ثم ماذا ؟.. ماذا تكون نتيجة هذه الأطعمة ؟.. وإلى أي شيء تصير ؟..

إنها لا شك بعد ذلك تتحول إلى شيء نتن ، شيء قبيح يعافه الإنسان وينفر منه .

إن مجرد استيلاء الإنسان على أموال الغير وجعلها في حيازته – يحولها إلى شيء نتن متعفن – لا يطيقه الإنسان السوي .. ولا يقبله عاقل .. ونتساءل إذا كان ذلك كذلك .. كيف يطيقه هذا الإنسان ؟ ونقول : إنه عندما فكر في ظلم الآخرين تعطلت في جسده أجهزة الخير ، وماتت في حسه عوامل الإنسانية .

فأصبح لا يفرق بين الحسن والقبيح .

بين النتن وطيب الرائحة .

بين الحلال والحرام – بل يسير في غيه – حتى تزهق روحه ويقف في يوم الحساب والعقاب .

فماذا يفعل هذا المال معه ؟ أعني مال الغير وحقوق الغير ؟..

---

(١) سورة النساء : آية رقم ٩ – ١٠ .

أتترك هذا الإنسان الذي بغى وتجبر؟..وهل يمكن أن يفلت من عقاب الله؟ وهل في مقدور الظالم للغير الآكل لأموالهم أن يجتاز الصراط ويتناول كتابه بيمينه ؟..

محال أن يكون ذلك – فالله سبحانه وتعالى – لا بد أن يقتص منه لترد الحقوق إلى أصحابها – ومن قبل ذلك – يصور الرسول ﷺ حقوق الغير بقوله:

« تأتي الإبل التي لم تُعط الحق منها تطأ صاحبها بأخفافها، وتأتي البقر والغنم تطأ صاحبها بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ويأتي الكنز شجاعاً أقرع فيلقي صاحبه يوم القيامة ، فيفر منه صاحبه مرتين ثم يستقبله فيفر .

فيقول : مالي ولك ؟.

فيقول : أنا كنزك ، أنا كنزك ، فيتقيه بيده فيلقمها »[1] .

---

(١) راجع سنن ابن ماجه جـ ١ كتاب الزكاة باب ما جاء في منع الزكاة رقم ١٧٨٦ .

الآية الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾

صدق الله العظيم

سورة الأحقاف : آية رقم ١٧

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والسيَر : نزلت هـذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر .

راجع تفسير زاد المسير لابن الجوزي ج ٧ ص ٣٨١ .

وراجع صحيح البخاري ج ٨ ص ٤٤٢، ص ٤٤٣ في تفسير سورة الأحقاف.

قال ابن كثير : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقوله ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه . تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

وراجع تفسير الجلالين على هامش المصحف الذى طبعه حسن عباس الشربتلي ص ٦٦٧ .

وراجع تفسير البغوي والخازن ج ٦ ص ٨٥ .

فمن هو عبد الرحمن بن أبي بكر ؟..

عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّدّيق

رضي الله عنهما

عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق

رضي الله عنهما

.. والده أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن قحافة ، ما عكم — أي ما تلبث — حين ذكرته له وما تردد فيه » (١) .

وهو صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الهجرة ، قال تعالى :

« ثاني إثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » (٢) .

وأمه : أم رومان بنت عامر، كانت زوجة فاضلة وأماً بارّة وسيدة حكيمة قال عنها رسول الله ﷺ :

« من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » (٣) .

وأخته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، والتي عاشت في بيت النبوّة ،

---

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٣ ط مصر .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٠ .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٨ ص ٢٧٧ .

حبيبة إلى رسول الله ﷺ قريبة إلى نفسه شيقة إلى قلبه ، لا يفارقها حتى يعود إليها ، ولا يظعن إلا ويؤوب وملء فؤاده شوق وحنين .

والذي قال لأم سلمة عندما حدثته برغبة أمهات المؤمنين :

« يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي في لحاق امرأة منكن غيرها » .

وأخته أسماء ذات النطاقين التي وقفت مع ابنها عبد الله بن الزبير وشدت من أزره أمام طغيان الحجاج .

وعندما قال لها : أخشى يا أماه إن ظفر بي بنو أميّة أن يمثلوا بجثتي .

قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فإن كنت على الحق فسر على بركة الله ، وإن كنت على الباطل فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأصحابك .

نشأ على بطاح مكة وسهولها كما ينشأ الأبطال، وعاش أيامه كما يعيش الرجال وعندما جاء الإسلام وأجاب أبو بكر داعي الله ، ودخلت أسرته في دين الله . وقف هو في الجانب الآخر، مع عصابة الكفر والضلال يسخر من الرجال المؤمنين.

ويسمعهم قوارص الكلم .

وينال منهم وينكل بضعفائهم .

ولم يكتفِ بذلك ، بل نراه يشارك قريشاً جمعها الجموع وحشدها الحشود لحرب محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم .

وكان له في غزوة بدر باع طويل في الكر والفر ، حتى أراد الله سبحانه وتعالى لدينه أن ينتصر ولحزبه أن تكون لهم الوراثة في الأرض .

وعاد عبد الرحمن إلى مكة ، كما عاد بقية الفارين أمام جند الله ، وهم يتوعدون ، وينتظرون فرصة ينالون فيها من محمد وأصحابه .

ثم كانت غزوة أحد ، تلك الغزوة التي أحاطت بها ظروف صعبة وملابسات قاسية !.

منها إكراه الرسول ﷺ على الخروج للمعركة .

وعودة عبد الله بن أبيّ من وسط الطريق بثلث الجيش .

ومخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ وتركهم أماكنهم رغبة في حيازة الغنائم .

في هذا الجو القاتم ، والبلاء النازل على المسلمين ، يبرز من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر ونادى بأعلى صوته : مَن يبارز ؟..

وما كاد أبو بكر يسمع صوت ابنه حتى همّ بالخروج إليه .

هم بالخروج إليه ليقتله .

هم بالخروج إليه ليسكت صوتاً من أصوات المشركين ، وبوقاً من أبواق الكافرين ، ولكن من يدري ؟.. أليس من المتوقع أن يتغلب الولد على أبيه ويقتله ؟.. لأن القلب إذا كان مظلماً ، وليس فيه من نور الإيمان والهداية شيء ، لا يبالي بما يأتي ومـا يدع ، ويصبح من السهل أمامه تقطيع وشائج القربى وأواصل الرحم .

من هنا كان قول الرسول ﷺ لأبي بكر : « شم سيفك وأمتعنا بك » وحال بينه وبين الخروج .

وانتهت غزوة أحد ، وعاد عبد الرحمن إلى مكة مرة أخرى مع المنتصرين من عصابات الكفر والضلال .

ثم ماذا ..؟ يصمت التاريخ عن الحديث بشأن عبد الرحمن فلا يذكره من قريب أو بعيد .

هل اشترك في حروب تالية ضد الرسول ﷺ ؟

أم أن قلبه استضاء بنور الإيمان فأعلن إسلامه ..؟

كل هذه الأشياء لا يستطيع الإنسان أن يجيب عليها إجابة قاطعة ، ما دام التاريخ لم يحدثنا عنها حديثاً مفصلاً .

حتى كانت حروب الردة ، التي جهز لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، الجيوش وأعدّ لها الكتائب ، وقرر أن يحارب كل من فرق بين الصلاة والزكاة، وقال في ذلك كلمته المشهورة :

« والله لو منعوني عناقاً كانوا يعطونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه » .

في هذه الحروب والمعارك يظهر عبد الرحمن بن أبي بكر في صفوف المسلمين وفي الجيش الذاهب إلى قتال مسيلمة الكذاب .

حتى إذا ما وصلوا إلى مكان يسمى (اليمامة) ودارت المعركة ، وتساقط القتلى من الجانبين ، وأوشك أن تدور الدائرة على المسلمين .

حتى قال ثابت بن قيس :

« بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين : اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ، يعني أهل اليمامة ، وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين ، ثم قاتل حتى قتل » .

هنا يظهر عبد الرحمن بقامته العالية وسيفه البتار وقلبه القوي ، فرأى محكم اليمامة يخطب في قومه :

يحرضهم على القتال والثبات .

ويطالبهم بالحفاظ على الأعراض والنساء .

ويشد من أزرهم ويقوّي عزيمتهم .

ويعدهم بالجنات والعيون التي أعدّها لهم مسيلمة الكذاب ، فرماه بسهم في نحره فأرداه وأعمل فيه سيفه ورمحه .

وأسكت هذا الصوت القوي ، وأخرس هـــذا البوق الداعي إلى الثبات والقتال .. وافتقد رجال مسيلمة الرجل الثاني لهم ، والقائد الذي يخطط لهم

وبقتله انكشف أمام المسلمين مسيلمة بوجهه القبيح ، وكأنه أراد أن يقوم بما كان يقوم به محكم اليمامة . فما كان من وحشي إلا دفع عليه حربته،وقام رجل آخر من الأنصار فضربه بسيفه ، قال ابن عمر رضي الله عنه : فصرخ رجل منهم قائلاً : قتله العبد الأسود ، وولت بنو حنيفة عند قتله منهزمة .

واستمر عبد الرحمن رضي الله عنه ، الجندي المطيع لأمر القائد والفارس الذى لا يتأخر عن غزوة في سبيل الله .

حتى كان يوم جاءه الرسول يخبره بمرض والده أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فانفلت مسرعاً إلى منزله ، فوجده يغالب أنفاسه الأخيرة بعد أن أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يصلي بالناس .

دخل عبد الرحمن على والده فقال له : يا أبي ألا ندعو الطبيب ؟..

قال : قد أتاني وقال لي أنا فاعل ما أريد .

فعلم مراده ، وسكت عنه . ثم مات رضي الله عنه .

وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن .

وسارت الحياة به بعد وفاة والده ، مع المسلمين في حربهم وسلمهم ، مع المسلمين في نشر دين الله ، والدعوة إلى توحيده ، في رحاب الأرض قاطبة .

وفي ليلة من الليالي كان عبد الرحمن يعود إلى بيته بعد أن قضى شطراً من الليل في منزل أخته عائشه أم المؤمنين رضي الله عنها ، وقريباً من بعض المنازل المتهدمة شاهد مجموعة من الرجال يتحلقون ، ويتهامسون فيما بينهم ، فاقترب منهم عبد الرحمن وكاد أن يسمع حديثهم بعد أن عرف صورهم وأسماءهم على التحديد ، وهم :

أبو لؤلؤة المجوسي .

والهرمزان .

وجفينة .

وما كادوا يشاهدونه حتى وثبوا هاربين ، وسقط من بينهم خنجر أسود ذو شعبتين .

وتساءل لماذا هرب هؤلاء الرجال عند رؤيتهم له ؟..

وما هو السر الذى جمعهم ؟..

وأي شيء كانوا يدبرونه في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟..

لقد كانت هذه الأسئلة تدور بخلد عبد الرحمن ، ولكنه لم يجد لهـــا تعليلا في حينها .

ولكن لم يمض كبير وقت ، حتى عرف عبد الرحمن ماذا كانت تدبر تلك المجموعة الباغية للإسلام وأهله .

لقد قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتوافقت الروايات بعد ذلك .

على أن الذي رآهم عبد الرحمن بن أبي بكر هم الذين دبروا جريمة القتل .

من ذلك ما يروى أن أبا لؤلؤة ، جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : إن المغيرة قد أثقل عليّ علتي فكلمه لي ليخفف عني .

فقال له عمر : ما تحسن من الأعمال ؟..

فذكرها له .

فقال له عمر : فما خراجك بكثير فاتق الله وأحسن إلى مولاك ، ومن نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه .

فانصرف العبد مغضباً وقال :

« وسع الناس كلهم عدله غيري » .

وكان خبيثاً إذا نظر إلى السبي الصغار ،يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي ويقول: أكل كبدي عمر ، فأضمر قتل عمر .

فاصطنع خنجراً له رأسان وسمه ، ثم أتى به الهرمزان فقال : كيف ترى هذا ؟..

قال : أرى أنك لا تضرب به أحداً إلا قتلته .

وجعل أبو لؤلؤة يتحين الفرص ، فمر بعمر فقال له عمر :

ألم أحدّث أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحى تطحن الريح ؟..

فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر ، « ومع عمر رهط » فقال : لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس .

فلما ولى قال عمر الرهط الذي معه : « أوعدني العبد آنفاً » [1] .

وجاء عثمان رضي الله عنه ،واتسعت رقعة البلاد الإسلامية ودخل في الإسلام قوم – وهم كارهون له – وأخذت الفتنة تظهر بقرنها ، حتى تجاوز الأمر إلى الوقوف في وجه الخليفة ، ومحاكمته ومحاصرته في بيته والحيلولة بينه وبين أداء واجبه كحاكم أمام الأمة الإسلامية ، ووصل الأمر إلى أن جردوا عثمان رضي الله عنه من كل سلطانه .

وفي هذه الفتنة التي لا تبقي ولا تذر ، أسند إلى عبد الرحمن بن أبي بكر أمانة بيت المال .

.. هل اشترك عبد الرحمن في إشعال الفتنة ؟..

وإذا لم يكن ، فماذا كان دوره ؟..

أتراه اكتفى بأمانة بيت المال وأقام فيه يصرف شؤونه ؟..

لا خبر يرويه التاريخ عن ذلك .

.. إن وقائع التاريخ تقف فلا تسجل عن عبد الرحمن شيئاً ، حتى يظهر في عسكر معاوية بن أبي سفيان فيقضية التحكيم ،وعلىالرغم منأنهكان مع معاوية،

---

(١) راجع الجزء السابع رجال أنزل الله فيهم قرآناً ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

إلا أنه عاب على أبي موسى الأشعري قلة خبرته بحيل وأساليب عمرو بن العاص والتي كانت كما ترويها كتب التاريخ عاملاً في تفريق الأمة وتمزيق وحدتها. وتقول الرواية :

إن عمرو بن العاص قال لأبي موسى الأشعري خبرني ما رأيك ؟..

قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا .

فقال عمرو : الرأي ما رأيت .

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عمرو :

يا أبا موسى أعلمهم أن رأينا قد اتفق .

فتكلم أبو موسى فقال : إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة .

فقال عمرو : صدق وبر .

تقدم يا أبا موسى فتكلم ، فتقدم أبو موسى فقال : إنا قد اتفقنا ثم قال :

« أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هــذه الأمة ، فلم نرَ أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً ثم تنحّى .

وأقبل عمرو فقام وقال :

إن هــذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه .

فقال سعد : ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده ؟؟..

فقال أبو موسى : فما أصنع ؟..

وافقني على أمر ثم نزع عنه .

فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : لو مات الأشعري قبل هذا اليوم ، لكان خيراً له .

أترى عبد الرحمن بعد هذه الحادثة ، علم أن جند معاوية لا يطبقون شرعاً ولا يخافون الله .. وفكر في تركهم والانفصال عنهم – والانضمام إلى جيش علي – رضي الله عنه ؟..

إن الحوادث التـــالية تقول غير ذلك ، وإن عبد الرحمن استمر في جيش معاوية ، حتى رأى هؤلاء الناس يرتكبون أفظع الحوادث وأقساها مع أقرب الناس إليه ، مع أخيه محمد بن أبي بكر رضوان الله عليهم .

لقد كان عبد الرحمن يجلس في فسطاط عمرو بن العاص ، عندما دخل عليهم معاوية بن خديج وهو يقبض على محمـد بن أبي بكر والي مصر من قبل علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم .

فوثب عبد الرحمن إلى عمرو بن العاص وقال :

« أتقتل أخي صبراً » ؟..

فطلب عمرو من معاوية أن يخلي عنه .

فقال معاوية بن خديج : قتلتم كنانة بن بشر وأخلي أنا محمداً ؟..

ثم تمثل بقول الله تعالى :

« أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر » [1] .

هيهات هيهات .

فقال لهم محمد بن أبي بكر . اسقوني ماء .

فقال له معاوية : لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً ، إنكم منعتم عثمان

(١) سورة القمر آية رقم ٤٣ .

شرب الماء ، والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق .

فقال له محمـد : يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك ، إنما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويظمىء أعداءه أنت وأمثالك .

وتمّ قتل محمد بن أبي بكر .

وفشل عبد الرحمن في أن يمنع هؤلاء من قتل أخيه ، ولكن ماذا بيده أن يفعل ؟..

إن البحر موار بالأمواج ، والضباب الخانق يملأ الكون ، والفتنـة تسير في طريقها مسرعة لا تبقي ولا تذر ، فليصبر عبد الرحمن حتى تنقشع هـذه الغمة ويظهر نور الفجر .

وسارت الحياة .. واستقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان وجنده ، وتفرق جند علي رضي الله عنه — وآثر كل إنسان السلامة — ولكن معـاوية أحسّ بقرب أجله ومغادرته هذه الحياة ، فأراد أن يأخذ البيعة لابنه يزيد . وخاطب مروان بن الحكم بذلك ، وأمره أن يشيع ذلك بين أبناء الصحابة رضوان الله عليهم ، ففعل وقال : إن أمير المؤمنين قد اختار الخير لكم .

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال :

« كذبت والله يا مروان وكذب معاوية،ما الخيار أردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل » .

فقال مروان : هذا الذي أنزل الله فيه :

(والذي قال لوالديه أف لكما) [1] .

فسمعت عائشة مقالته فقامت من وراء الحجاب وقالت:يا مروان يا مروان فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه .

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٧ .

فقالت : أنت القائل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن ؟.. كذبت والله ما هو به . ولكنه فلان بن فلان .

وعلم معاوية رضي الله عنه ، بما فعله عبد الرحمن فأرسل إليه بمئة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد، فردّها عبد الرحمن ، وأبى أن يأخذها وقال : « أبيع ديني بدنياي »

فخرج إلى مكة فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد بن معاوية .

قال أبو عمر رضي الله عنه : يقولون : إن عبد الرحمن بن أبي بكر مات فجأة بموضع يقال له (الحبشي) على نحو عشرة أميال من مكة ، وحمل إلى مكة فدفن بها . ويقال : إنه توفي في نومة نامها ، ولما اتصل خبر موته بأخته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، — ظعنت من المدينة حاجة — حتى وقفت على قبره ، فبكت عليه وتمثلت بقول الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا[1]

أما والله لو حضرتك لدفنتك حيث مت مكانك ، ولو حضرت ما بكيتك

وكانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث وخمسين وقيل سنة خمس وخمسين بمكة ، والأول أكثر صحة .

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٨٢٦ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .

روي عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ، وعلى هـذا جمهور المفسرين .

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن ، وتحلف على ذلك وتقول :

« لو شئت لسميت الذي نزلت فيه » .

قال الزجاج ، وقول من قال : إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، باطل بقوله تعالى : (أولئك الذين حق عليهم القول) [١] .

فأعلم الله أن هؤلاء لا يؤمنون ، وعبد الرحمن مؤمن ، والتفسير الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق .

وروي عن مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر .

وعن الحسن أنها نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا : ذلك لآبائهم [٢] .

قال ابن كثير ، والذي قال لوالديه أف لكما :

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٨ .

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي جـ ٧ ص ٣٨١ .

هذا عام في كل من قال هذا .

قال : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنها فقوله ضعيف .

لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه .

قال : وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

قال وفي صحة هذا نظر والله أعلم .

وقال ابن جرير عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما.

قال ابن جريج ، وقال آخرون :عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما .

تذييـل ...

الأسرة في الإسلام هي اللبنــة الأولى في بناء المجتمع ، ويحرص الإسلام على إحاطتها بمجموعة من الضمانات ، حتى تستطيع أن تؤدي واجبهـا كاملاً إزاء أبنائها وأمام المجتمع .

والأسرة لن تستطيع أن تقوم بتربية الأولاد تربية تتفق مع شرع الله تعالى إلا إذا كان المجتمع ملتزماً بهذا الشرع قائماً به ، يحتكم إليه . لأنه إذا كان المجتمع لا يقيم وزناً للقيم ولا للأخلاق ، وينخرط في السلك المادي. فمهما حاولت الأسرة أن تقوم بواجبها في تربية الأولاد فإن ذلك سيكون له آثار عكسية .

إذا كانت الأسرة تعلم أبناءها الصدق في القول ، والصدق في العمل والصدق في كل ما يأتي المرء وما يدع .

ويخرج هـذا الأبن إلى المجتمع فيجد أن الصدق بضاعة كاسدة ، وعملة لا تروج ..

فالذي يتقدم الصفوف هو الذي يتقن فن المداهنة ، ويجيد أساليب التملق ، ويحرص على إرضاء الرؤساء حتى ولو كان هذا الإرضاء على حساب كل القيم وكل الأخلاق .

وماذا يفعل الابن الذي تلقى على يد والديه .. العفة في اللسان وصيانة

الأعراض ، وضبط النفس،والحيلولة دون التطلع إلى جسد حرام أو مال حرام.

ويخرج هذا الابن إلى المجتمع ، فيرى أجساداً عارية ، وعورات مكشوفة ، وأعراضاً مباحة .. ينهش منها هـذا الواغل أو ذلك ، والمجتمع يرى ذلك فلا يغيره ، والحكومات – تشاهد ذلك فلا تبطله ، بل في بعض الأوقات تشجع عليه – وتقيم له الأماكن وتهيىء له الأسباب حتى ينشغل الشباب به عن إسفاف الحاكم ، أو يتلهوا به عن لصوصية القائمين على الحكم .

إن الأسرة تستطيع أن تفعل الكثير،والكثير من أجل تربية أبنائها شريطة أن تقف الدولة بجانبها ، تشد من أزرها ، وتقيم قواعد المجتمع على أسس سليمة من القيم والأخلاق .

ولكن المشاهد في هـــذا القرن الذي نعيش فيه ، أن الكثير من أجهزة الإعلام في كثير من البلدان الإسلامية تعمل على إفساد المجتمع وعلى تفتيت الأسرة وعلى إشاعة الرجس بين الأبناء والفتيات . إن الصحافة في سبيل الحصول على الربح ، تعمل جاهدة على إزكاء الغرائز وتهييج الشهوات بما تقدمه من مادة في الكتابة تدفع الشباب دفعاً إلى الانسلاخ من قيمهم وأخلاقهم .

زد على ذلك الصور العارية – والسوءات المكشوفة – والجنس المتنمر الذي لا يقف عند حد .

وإذا كانت الصحافة تفعل ذلك ، ومستمرة فيه ، فإن الإذاعة ، تعمل أيضاً على تقديم الأغاني الخليعة، والكلمات المبتذلة، والكفر البواح في بعض الأوقات.

ثم جاء « التلفاز » وتفنن القائمون عليه ، في أن يقدموا المجتمع كل ما من شأنه أن يرضي الغرائز ويدفع إلى الانحلال .

إن الصحافة ، والاذاعة ، والتلفاز .

أجهزة تعاونت البشرية في إنشائها .. ويمكن أن تكون وسيلة من وسائل بناء

المجتمع ، وعاملا قوياً في تثبيت أركانه .. إذا التزمت بشرع الله وسارت على قواعد الدين والخلق .

إن الصحافة : يمكن أن يكون لها دور كبير في التوجيه والتربية وإقامة رأي عام يدعو إلى الخير ويفعله .

والإذاعة : أيضاً هي عامل من عوامل التثقيف والإرشاد ، ككل طبقات الأمة فهي تستطيع أن تشارك الفلاح في مزرعتـه ترشده إلى خير الطرق في تنمية الزراعة وتجديد التربة ، وإكثار الخير. وتستطيع الإذاعة أيضاً أن تشارك الصانع في مصنعه .

والعامل في معمله .

والطالب في مدرسته .

والموظف في ديوانه .

وكل من هؤلاء تقدم لهم الجديد المبتكر في كل علم وفي كل فن ، حتى تتقدم الحياة وينتعش المجتمع ويعم الرخاء .

وما تفعله الإذاعة يمكن أن يفعله « التلفاز » بصورة مكبرة ، فهو يقدم مع الكلمة المثل والدليل ، فتكون الفائدة أكثر والنفع أكبر .

وإذا لم تتدارك الأمم الإسلامية ذلك – وتعود إلى كتاب ربها وإلى سنّة رسولها – لا شك أنه يصيبها ما أصاب الأمم قبلها من الدمار والخراب ..

والله سبحانه وتعالى يقول :

(وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) [1] .

---

(١) سورة محمد آية رقم ٣٨ .

الآية الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ
وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ
الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝

صدق الله العظيم

سورة المنافقون : آية رقم ٧ – ٨

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والسنن نزلت هذه الآيات تصديقاً لزيد بن أرقم .

قال ذلك صاحب الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٣٥ .

وراجع البخارى ٨ / ٤٩٤ في تفسير سورة المنافقون .

وباب اتخذوا أيمانهم جنة ، وباب قوله : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) .

وباب إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم .

وأخرجه مسلم رقم ٢٧٧٢ في صفات المنافقين .

وأخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٩ و ٣٢١٠ في التفسير .

باب ومن سورة المنافقين .

فمن زيد بن أرقم ؟..

زيد بن أرقم

رضي الله عنه

زيد بن أرقم ...

رضي الله عنه

هو زيد بن أرقم بن زيد بن قيس .

من الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين أحسن استقبال ، وقدموا لهم المـــال والأنفس والأرواح .

يقال نشأ يتيماً في كنف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة الذي كان يمسك بزمام ناقة الرسول ﷺ في عمرة القضاء ، ويقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فإن الخير مع رسوله
قـد أنزل الرحمن في تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مَقيله
ويذهل الخليل عن خليـــله

وقيل:بأن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن رواحة انزل فحرك بنا الركب.

قال : يا رسول الله إني قد تركت قولي هذا .

فقال له عمر : اسمع واطع ، فنزل وهو يقول :

يا رب لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنـــا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينـــا
وثبت الاقـــدام إن لاقينا
إن الكفار قد بَغوْا علينا
وإن أرادوا فتنة أبيْنـــا

فقال النبي ﷺ : « اللهمّ ارحمه »[1] .

فقال عمر : وجبت .

في هذه الأجواء المحلقة ، وفي رعاية هـذا الصحابي الجليل الذي يحبه رسول الله ﷺ ويدعو له ، نشأ زيد بن أرقم رضي الله عنه .

ولا يحدثنا التاريخ عن طفولة زيد بن أرقم ولا عن شبابه ، ولا كيف دخل الإسلام في قلبه . حتى يقف أمامه مبهوراً في غزوة من غزوات الرسول ﷺ .

يقف التاريخ عنده طويلاً ويسجّل له حادثة من أعجب الحوادث التي مرّت بالمسلمين ، إنها حادثة من حوادث النفاق . وأصحابها هم أولئك الذين دخلوا في جماعـة المسلمين بألسنتهم ولم يستقر الإسلام في قلوبهم ، والحادثة : هي غزوة بني المصطلق .

وحقيقتها : أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ .

فلما سمع رسول الله ﷺ بهم ، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٢٧ .

واقتتل الناس ودارت معركة انهزم فيها بنو المصطلق .

وتزاحم الناس على الماء ، فأقبل أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقال له جهجاه بن مسعود ، يقود فرسه فازدحم معه سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا .

فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار .

وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث .

فقال : أو َقد فعلوها ؟.. قـــد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدّنا وأهل قريش إلا كما قال الأول :

« سمّن كلبك يأكلك » [1] .

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

« هـذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم » .

فسمع ذلك زيد بن أرقم .

فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من شؤون المعركة ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب فقال :

« مر به عباد بن بشر فليقتله » .

فقال له رسول الله ﷺ :

---

(١) هذا مثل من أمثال العرب ، وفي ضده تقول العرب : « جوع كلبك يتبعك » .

« فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟..لا ولكن إئذن بالرحيل » .

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

وعلم عبد الله بن أبيّ بما قاله زيد بن أرقم ،فاتجه إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قلت : ما قال ، ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفاً عظيماً .

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل عطفاً على ابن أبيّ ودفعاً عنه .

فلما سار رسول الله ﷺ ، لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحيه النبوة وسلم عليه ثم قال :

يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ؟..

فقال له رسول الله ﷺ :

« أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم » ؟

قال : وأيّ صاحب يا رسول الله ؟..

قال : عبد الله بن أبي .

قال : وما قال ؟..

قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل .

قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن

وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً،وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال :

« هذا الذي أوفى لله بأذنه » .

لقد أدّى زيد بن أرقم ما يوجبه عليه .

إنه المسلم الملتزم ، ولا يقبل مطلقاً أن ينال أحد من رسول الله أو من جماعة المسلمين .

والمسلم دائماً ولاؤه لله تعالى .

والمسلم في كل أحواله محبّ لرسول الله ﷺ .

والمسلم الحق : هو الذي يلتزم بكتاب الله تعالى وبسنّة الرسول ﷺ .. يحكمها في شؤونه كلها ..

أما هؤلاء الذين يكون ولاؤهم لليهود الذين حرّفوا التوراة .

أو للنصارى الذين يقولون : بالتثليث .

أو لهؤلاء المنافقين ، والانتهازيين ، والمارقين عن حدود الله فإن الله تعالى يخاطب المؤمنين بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق »[1] .

لقد نزل القرآن ليفصل في هذه القضية .

ويقول لهذا المنافق إنك كذاب . تنال من الناس بغير حق ، ويسيطر الجبن

---

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١ .

على كل جارحة من جوارحك .. فلا تنطق بالحق ولا تقرر الواقع ، ولا تعتذر عما بدر منك .

ونزل القرآن ليصدق هذا الصبي فيما نقله .

فهو صادق بقلبه .

وهو صادق بلسانه .

وهو صادق فيما نقله إلى رسوله ﷺ .

ومن هذا التاريخ لم يتخلف زيد بن أرقم عن غزوة من غزوات الرسول ﷺ .

فهو الجندي المجاهد في سبيل دينه ومن أجل إعلاء كلمة ربه .

وأصبح الجهاد حرفته لا يستطيع التخلف عن غزوة مهما كانت الأسباب ، حتى تلك الغزوة التي كانت على مشارف الروم والتي سميت بغزوة مؤته ، كان زيد بن أرقم أحد رجالها وأبطالها .

يقول محدثاً عن نفسه :

كنت رفيقاً لعبد الله بن رواحة في غزوة مؤته ، فخرج مردفي على حقيبة راحلته فوالله إنا لنسير ليلة إذ سمعته يتمثل بأبياته هذه :

إذا أدنيتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمي وخلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وآب المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشتهي الإواء
وردك كل ذي نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل ... ولا نخل أسافلها رواء [٢]

يقول زيد بن أرقم :

(١) كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم جـ ١ ص ١١٩ .

« فلما سمعتهن بكيت ، قال : فخفقني بالدرة ، وقال : ما عليك أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبتي الرحل » .

وحقق الله له ما تمناه ونال الشهادة ..

وعاد زيد بن أرقم مع الجيش العائد إلى المدينة .. وتقلّبت به الأيام ومرت عليه الليالي .. ويصمت التاريخ فلا يحدثنا عن زيد – حتى كانت موقعة صفين بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما ، هنا يظهر زيد في جيش علي ، أحد الأبطال المغـــاوير ومن خلصاء علي بن أبي طالب المقربين .. ثم اعتزل كل ذلك ونزل الكوفة وابتنى بها داراً في كندة [1] ..

يعبد ربه ويستقبل أصحابه ، ويهدي إلى الخير ويدل عليه ، حتى آتاه اليقين في سنة ثمان وستين .

رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته بمقدار ما قدم من خير للإسلام ورفع رايته ونصرة دينه ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

---

(١) كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٥٣٥ .

يقول زيد بن أرقم رضي الله عنــه : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر – أصاب الناس فيه شدة – .

فقال عبد الله بن أبيّ : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال :

« لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل » .

قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ فسأله.

فاجتهد يمينه ما فعل .

فقالوا : كذب زيد رسول الله ﷺ .

قال : فوقع في نفسي من قالوا شدة ، حتى أنزل الله تصديقي: (إذا جاءك المنافقون) – « سورة المنافقون » .

قال : ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم ، قــال : (فلووا رؤوسم) ، وقوله : (كأنهم خُشب مسندة) . قال : كانوا رجالاً أجمل شيء .

وفي رواية أن زيداً قال : كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبيّ يقول :

فذكر نحوه ، قال : فذكرت ذلك لعمي – أو لعمر [1] – فيذكر ذلك رسول الله ﷺ ، فدعاني فحدثته ، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني فأصابني غم لم يصبني مثله قط ،فجلست في بيتي .

وقال عمي : ما أردت إلى أن كذّبك النبي ﷺ ومقتك ؟ فأنزل الله عز وجل : (إذا جاءك المنافقون) إلى قوله : (ليخرجن الأعز منها الأذل) [المنافقون ١ – ٨] . فأرسل رسول الله ﷺ فقرأها عليّ ثم قال : « إن الله قد صدقك » [2] .

وفي رواية أخرى له قال : غزونا مع رسول الله ﷺ ، وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا إليه ، فسبق أعرابي أصحابه ، فيسبق الأعرابي فيملأ الحوض ، فيجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع عليه ، حتى يجيء أصحابه قال : فأتى رجل من الأنصار أعرابياً ، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه فانتزع قباض الماء فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصاري فشجه ، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره ، وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ، ثم قال :

« لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله – يعني الأعراب – وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام .

قال عبد الله : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه :

(لئن رجعنا إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل) .

---

(١) وقع عند الطبراني : أن المراد بعمه سعد بن عبادة ، وليس هو عمه حقيقة وإنما هو سيد قومه الخزرج ، وعم زيد بن أرقم الحقيقي هو ثابت بن قيس له صحبة .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

قال زيد ، وأنا ردف عمي ، فسمعت عبد الله ، فأخبرت عمي ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني ، قال : فجاء عمي إليّ فقال : ما أردت إلى أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون .

قال : فوقع عليّ من الهم ما لم يقع على أحد،قال : فبينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر ، قد خفقت برأسي من الهم ، إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا .

ثم إن أبا بكر لحقني فقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟..

قلت : ما قال شيئاً إلا أنه عرك أذني ، وضحك في وجهي .

قال : أبشر .

ثم لحقني عمر ، فقلت له مثل قولي لأبي بكر .

فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين (١) .

---

(١) أخرجه البخاري ٨ / ٤٩٤ في تفسير سورة المنافقون،في فاتحتها وباب اتخذوا أيمانهم جنة ، وباب قوله : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) وباب (إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)،وأخرجه مسلم رقم ٢٧٧٢ في صفات المنافقين ، والترمذي رقم ٣٣٠٩ و ٣٣١٠ في التفسير ، باب ومن سورة المنافقين .

تـذييل ...

.. لماذا ذهب زيد بن أرقم رضي الله عنه إلى الكوفة ، وأقام بها ؟.. ومن قبله ومن بعده مجموعة من الصحابة رضوان الله عليهم آثروا المقام بالكوفة ؟.

ولماذا تركوا تلك البلاد التي أقام فيها رسول الله ﷺ ؟..

ألأن الكوفة في ذلك العصر كانت وافرة الخير كثيرة الرزق ؟..

أم لسلامة مناخها وعذوبة مائها ؟..

أم أن هناك أشياء أخرى غير ذلك ، دفعتهم للهجرة إلى الكوفة والإقامة بها بقية حياتهم ؟..

قبل أن نجيب على ذلك ، يقتضينا الكلام أن نلقي بعض الأضواء على نشأة الكوفة ، ومن الذي قام ببنائها وتخطيطها ، فنقول :

لما فرغ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من معركة القادسية ، وهرب (يزدجرد) إلى اصطخر ، نزل كل قوم من المسلمين في ناحية فاعتلوا ، فكتب سعد إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما بذلك ، فكتب إليه عمر قائلاً :

« إن العرب لا يصلحها من البلدان ، إلا ما أصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف » .

فأتاه بن بقيلة فقال له : هل أدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المبقة ؟..

قال : نعم ، فدله على موضع الكوفة .

ويقال : إن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال عندما وضع أثاث قلعة الكوفة : اللهم اجعلها عصمة للمسلمين من عدوهم ، وكان سعد مستجاب الدعاء.. فاستجاب الله دعوته : فلم يستطع عدو خارجي أن يقتحم بناء الكوفة .. وهذه البنية قائمة .

ومع ذلك كان المسلمون في داخل بلادهم – مع قيام قلعة الكوفة – بأسهم بينهم شديد ، ودخلوا في ليل مظلم طويل لا نهاية له ، ومعارك طاحنة بددت قوتهم وأضرّت بالإسلام والمسلمين .

يقول أحد المؤرخين : مصوراً ضراوة المعارك التي دارت بين المسلمين في الفترة التالية التي ذهب فيها إلى الكوفة زيد بن أرقم .

« إنه رأى رأس الحسين رضي الله عنه في قلعة الكوفة أمام عبد الله بن زياد وهو ينكث الرأس بقضيب كان في يده » .

وما لبث أن ثار المختار الثقفي ، وقاد جيشاً جراراً من المطالبين بثأر الحسين وحاصر جيش عبد الله بن زياد ، فاستسلم له ، وقتل عبد الله بن زياد ، وحمل رأسه إلى قلعة الكوفة أيضاً ، ووضع أمام المختار الثقفي .

ولم يمض على ذلك وقت طويل ، حتى كان جيش مصعب بن الزبير ينكل بجيش المختار الثقفي ، ويحز رأسه بعد قتله لتوضع أمام مصعب بن الزبير في قلعة الكوفة .

وخشي الأمويون على ملكهم ، فأرسل عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً فحاصر جيش مصعب بن الزبير ، وتمكن قائده في النهاية من حز رأس مصعب لتوضع أمام عبد الملك بن مروان .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فما لبثت أن زحفت الجيوش المجيشة بقيادة أبي مسلم الخرساني لتحطيم الدولة الأموية وإعلان قيام الدولة العباسية .

وتمّ للجيش المغير ما أراد وخربت المدن ، وأبيد مئات الآلاف من أبناء المسلمين ، وشرد آلاف آخرون .

والحقيقة التي يجب أن يعرفها أبناء المسلمين الآن ، أن الأمر لم يكن أمر تحطيم دولة ، وقيام أخرى بديلة ، وإنما كان الأمر أعمق من ذلك وأكبر ، إنه تخريب لذاتية الأمة الإسلامية كلها ، وانهزامها من الداخل ، وكان وقوع هذا نتيجة تحكيم الهوى والغرض ، وعدم الاحتكام إلى كتاب الله ، وكان أن فتحت أبواب بغـــداد – عاصمة الإسلام – أمام جحافل التتار والمغول ، بيد الحزب المناوىء للحزب الحاكم في ذلك الوقت .

وفي مصر ،العاصمة الثانية للإسلام – في ذلك الوقت – أرسل الوزير الفاطمي المسلم ، رسالة إلى الصليبيين ليستعين بهم على حكم المسلمين .

وفي الأندلس ، كان حكامها المسلمون يستعينون على بعضهم البعض، بمن كان يجاورهم من حكام الفرنجة .

حدث هذا وأكثر منه ، في تلك الفترة التي كان زيد بن أرقم رضي الله عنه يطأ أرض الكوفة ، ويقيم داراً في كندة ..

ونعود للسؤال السابق : لماذا اختار مجموعة من الصحابة الكوفة بالذات ، مقراً لإقامتهم ؟..

إن الإمام علي رضي الله عنه ، يقول عنها :

الكوفة : كنز الإيمان .

الكوفة : حجة الإسلام .

الكوفة : سيف الله ورمحه يضعه حيث شاء .

والذي نفسي بيده : « لينصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربهـــا ، كما انتصر بالحجاز »[1] .

أقال الإمام علي رضي الله عنه هذا الكلام ؟

إن مما يؤيد ذلك ما يقوله سلمان الفارسي رضي الله عنه :

« أهل الكوفة أهل الله ، وهي قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن »[2] .

والآن في هـذا العصر الموار بالفتن المشتعل بالحروب ، الهائج بكل عاصفة هوج ، وبكل ريح مدمرة .

هل لا زالت الكوفة : كنز الإيمان وحجة الإسلام ؟

وهل لا زال أهلها : أهل الله ؟

أم أنه قد أصابهم ما أصاب غيرهم ، وأن ضراوة الغزو الفكري المتنمر ، وأساليب المذاهب الهـدامة ، والإعلام الموجه من الصهيونية الغادرة ، كان له تأثير في تغيير هذه المدينة وأهلها .

.. الله أعلم بذلك ، وعلى الله قصد السبيل .

---

(١) معجم البلدان : ياقوت الحموي ج ٤ ص ٤٩٢ .
(٢) المصدر السابق .

الآية الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ
وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا
مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ
الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ
إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

صدق الله العظيم

سورة البقرة : آية رقم ١٨٧

أقوال العلماء في نزول هذه الآيات

قال بعض رجال السير والتفسير نزلت هذه الآية :

في أبي قيس ، صرمة بن أبي أنس بن مالك .

قاله صاحب الاستيعاب جـ ٢ ص ٧٣٧ .

وقاله ابن اسحاق في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣٠ .

وقاله أبو داود رقم ٢٣١٤ في الصيام باب مبدأ فرض الصيام .

وراجع البخاري ٤ / ٩١١ ، ٩١٢ ، في الصوم باب (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) .

وراجع الترمذي رقم ٢٩٧٢ في التفسير ، باب ومن سورة البقرة .

وراجع النسائي ٤ / ١٤٧ ، ١٤٨ في الصيام باب تأويل قول الله عز وجل : (كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) .

فمن صرمة بن قيس ؟..

صرمة بن قيس

رضي الله عنه

صرمة بن قيس

رضي الله عنه

مَن يكون صرمة هـذا ، حتى يقف التاريخ أمامه مبهوراً يسجل أعماله وكلماته بأحرف من نور ؟..

مَن هذا الرجل الذي رزقه الله سبحانه وتعالى عقلاً ألمعياً، فرّق به بين الحق والضلال والهدى والنور ؟..

مَن هذا العملاق الذي أعلن كلمة التوحيد عالية خفاقة في ثرى يثرب، فردد معه جنبات الوادي معلنة التسبيح والتحميد لله الواحد الأحد ؟..

إنه : صرمة بن أبي أنس بن صرمة بن مالك ، أخو بني عدي بن النجار .

يكنى أبا قيس .

وربما قال فيه بعضهم صرمة بن مالك، فنسبه إلى جده.. بين السهول الخضر ووسط العيون الفوارة بالماء العذب ، وعلى ثرى الطبيعة الفواحة بالعطر ، المليئة بالخير كانت ولادته .

فنشأ مع الأجواء الفسيحة يشاهد السماء الصافية العاليـة المقبقبة ، الأرض بلا عمد ترفعها أو حواجز تسندها .

واستمتع شبابه الباكر بجمال الكون الذي نسقته يد القادر الخالق ، فهـذه الكواكب والثريات التي تنتشر على صفحة السماء .

وهذه الشمس التي ترسل أشعتها إلى الأرض بالدفء والنماء .

وهذا القمر الساجي نوره الساطع بهاؤه .

وهذه المياه العذبة التي تقذف من باطن الأرض بلا تعب ولا مشقة ، فتسقي النبات وتشيع في الأرض الخضرة والثمار .

مَن فعل كل ذلك ؟..

مَن الذي نسق هذا الكون ؟..

من الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ؟..

من الذي جعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعلمه ما لم يكن يعلم ؟..

من فعل ذلك ؟..

أهي الأصنام المقامة في الكعبة ويحج لها الحجيج في كل عام ، يقدمون لها النذور ويذبحون باسمها الذبائح ، ويتمسحون بحجارتها الصلدة ؟..

إنها لا تنطق ولا تتكلم .

إنها لا تنفع ولا تضر .

إنها لا تستطيع أن ترد عنهـــا كيد المعتدين ، وعبث العابثين ، فمحال أن تكون المبدعة الخالقة للكون وما فيه ؟..

هذه التساؤلات كانت لا تفارق مخيلة صرمة ، فأقلت نهاره ، وأسهرت ليله، حتى هدي إلى الحق ، وبان له نور اليقين .

فماذا كان منه ؟.. لبس المسوح وترهب ، وفـــارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة .

يقول عنه ابن اسحاق :

« كان رجلاً قد ترهب في الجـــاهلية ، ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها .

إذن ماذا يفعل ، وكيف يتجه ؟..

لقد قرر أن يدخل بيتاً ويتخذه مسجداً له ، لا يدخل عليه فيه طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم عليه السلام .

إبراهيم الذي قال لأبيه : (أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) .

إبراهيم الذي أراد أن يهدي قومه إلى حقيقة التوحيد ، فقال عندمـــا رأى كوكباً هذا ربي .

(فلما أفل قال لا أحب الآفلين) [1] .

وعندما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي .

(فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) [2] .

وعندما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربي ، هذا أكبر .

(فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون) [3] .

ووقف ابراهيم في وجه الطاغوت يصدع بكلمة الحق ويعلن كلمة التوحيد :

« ربي الذي يحيي ويميت » .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٧٦ .

(٢) « « « « ٧٧ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٨ .

قال الطاغية : أنا أحيي وأميت .

قال إبراهيم : « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » .

هل تستطيع طواغيت الأرض أن تفعل ذلك ؟

هل في مقدورهم أن يخلقوا ذبابة ؟..

محال أن يفعلوا ذلك : (فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)[1].

واستمر صرمة في عبادة رب إبراهيم .

وسخر منه قومه وتقوّلوا عليه الأقاويل، ورموه بالخبل والجنون، فقال لهم :

سبحوا لله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هـــلال

عالم السر والبيان لدينـــا ... ليس ما قال ربنا بضلال

وله الطير تستريـد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال[2]

وله الوحش بالفـلاة تراها ... في حقاف وفي ظلال الرمال[3]

وله هودت يهود ودانت ... كل دين إذا ذكرت عضال

وله شمّس النصارى وقاموا ... كل عيد لربهم واحتفال[4]

ولـه الراهب الحبيس تراه ... رهن بؤس وكان ناعم بال

يا بنيّ الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال

واتقوا الله في ضعاف اليتامى ... ربما يستحل غير الحـــلال

واعلموا أن لليتيم وليـــاً ... عـــالماً يهتدي بغير سؤال

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

(٢) الوكور : جمع وكر ، وهو عش الطائر .

(٣) الحقاف : جمع حقف ، وهو المستدير من الرمال .

(٤) شمس : تعبد ، والشماس : عابد من عباد النصارى، وسمي الشماس بذلك لأنهم يشمسون أنفسهم .

ثم مـال اليتيم لا تأكلوه | إن مال اليتيم يرعاه والي
يا بنيَّ التخوم لا تخزلوها | إن خزل التخوم ذو عقال[1]
يا بنيَّ الأيام لا تأمنوهـا | واحذروا مكرها ومرَّ الليالي
واجمعوا أمركم على البر والتقـ | ـوى وترك الخنا وأخذ الحلال[2]

أليست هذه دعوة التوحيد ؟..

إنه يطالب الذين من حوله بالتسبيح والتقديس ، للذي أظهر الصباح وأطلع الشمس والقمر .

ويصف الله سبحانه وتعالى أنه عالم السر ، عـــالم الغيب .. يعلم خلجات الأنفس .

(ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم)[3] .

ثم يقول بأن الله سبحانه وتعالى له كل ما في الكون من إنس وجن وطير وحيوان ، الكل يسبح له ويخضع لمشيئته .

ثم بعد أن يرشد الناس إلى خالقهم ، يدعوهم إلى مكارم الأخلاق .

فهو يطالب بصلة الأرحام .

ويدعو إلى الرفق باليتيم ، وعدم الأخذ من ماله .

فالدنيا إلى فناء والآخرة إلى بقاء .

---

(١) التخوم : حدود الأرضين ، والعقال : ما يمنع الرجل من المشي ويعقلها .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣١ - ٢٣٣ .
(٣) سورة المجادلة آية رقم ٧ .

وكل ما يملكه الإنسان عرض زائل ، وعارية مردودة .

فالبر البر ، والتقوى التقوى ، والابتعاد عن كل ما ينقص أو يشين .

وأكل الطيب الحلال .

واستمر صرمة على حاله معتكفاً في مسجده، يدعو إلى مكارم الأخلاق والبعد عن سفسافها حتى كان يوم .

وسمع بسفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه لأهل المدينة ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويبشرهم بالفوز بالجنان إن هم أجابوا داعي الله .

فأعلن صرمة إسلامه ، وانضم إلى الدين الجديد ، وفي رحاب التوحيد استطاع أن يتعرف على كثير من الأسئلة التي كانت ترد على خاطره وتشغل نهاره وتقلق ليله ولا يجد لها جواباً .

ويصور أبو قيس صرمة بن قيس دعوة الرسول ﷺ ، وما لقيه من كفار قريش بقوله :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم يرَ من يؤوي ولم يرَ داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان لنا عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل ما لنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره ... ونعلم أن الله أفضل هاديا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك في كل بيعة ... تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا

أقول إذا جاوزت أرضاً مخوفة — حنانيك لا تظهر عليّ الأعــاديا
فطأ معرضاً إن الحتوف كثيرة — وإنك لا تبقي لنفسك باقيــا
فوالله ما يدري الفتى كيف يتقي — إذا هو لم يجعل له الله واقيــا

وكان حكيماً يجري الله سبحانه وتعالى الحكمة على لسانه ، وذكر سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد قال :

سمعت عجوزاً من الأنصار تقول : رأيت ابن عباس رضي الله عنه يختلف إلى صرمة بن قيس يتعلم منه هذه الأبيات :

يقول أبو قيس وأصبح ناصحــاً — ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
أوصيكم بالله والبر والتقى — وأعراضكم وبالــبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم — وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم — فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن يأتِ غرم قــادح فارفقوهم — وما حملوكم في الملمات فــاحملوا
وإن أنتم أملقتم فتعففــوا — وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

هذا هو أبو قيس صرمة بن قيس قبل الإسلام ، وقبل مبعث الرسول ﷺ ، فما دوره عندمــا أشرق قلبه بنور الإسلام ، أكانت له مجادلات مع اليهود في المدينة ، هؤلاء الذين كانوا يبشرون بقرب ظهور نبي ، فلمــا جاءهم الرسول تنكروا له ؟..

أكانت له مواقف مع هؤلاء المنافقين الذين يؤمنون نهاراً ويكفرون ليلاً؟..

والذي عبر القرآن عنهم بقوله :

(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ومـــا يشعرون . في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)[1] .

إن الوثائق التي بين أيدينا لا تشير إلى شيء من ذلك ، ولا تذكر أنه اشترك في غزوات أو حروب .

بل أغفلت كتب التاريخ أن تحدد لنا تاريخ وفاته ، رحمه الله رحمــة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩ – ١٢ .

أسباب نزول الآيات

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال :

« كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان أحدهم صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال » :

« أعندك طعام » ؟..

قالت : لا، ولكن أنطلق فأطلب لك . وكان يومه يعمل فغلبته عينه فجاءت امرأته، فلما رأته قالت : خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية :

(أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) .

ففرحوا بها فرحاً شديداً ونزلت :

(وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) .

هذه رواية البخاري والترمذي [1] .

---

(١) راجع البخاري ٤ / ٩١١، ٩١٢ في الصوم، باب أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، والترمذي رقم ٢٩٧٢ في التفسير، باب ومن سورة البقرة .

وفي رواية النسائي : قال أخبرني هلال بن العلاء بن هلال بسنده عن البراء بن عازب أيضاً :

« أن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشى لم يحل له أن يأكل شيئاً ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس حتى نزلت هذه الآية » :

(وكلوا واشربوا) إلى قوله : (الخيط الأسود) . وقال : نزلت في أبي قيس بن عمرو ، أتى أهله وهو صائم بعد المغرب فقال :

« هل من شيء » ؟

فقالت امرأته : ما عندنا شيء ، ولكن أخرج ألتمس لك عشاء فخرجت ووضع رأسه فنام ، فرجعت إليه فوجدته نائماً وأيقظته فلم يطعم شيئاً ، وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار ، فغشي عليه وذلك قبل أن تنزل هذه الآية ، فأنزل الله فيه [1] .

---

(١) راجع النسائي ٤ / ١٤٧ - ١٤٨ في الصيام ، وأبو داود رقم ٢٣١٤ في الصيام .

تـذييل ...

سؤال نطرحه على أنفسنا أولاً وعلى القرّاء ثانياً ، هل كان صرمة بن قيس متفرداً في التبرم بالأصنام والسخرية بالأصنام ؟..

أم كان يشاركه في ذلك مجموعة ممن حباهم الله سبحانه وتعـــالى رزانة في العقل وسلامة في التفكير ؟..

إن وقائع التاريخ تقرر أن النزعة إلى الحنيفية في جزيرة العرب كانت شائعة ويعتنقها مجموعة من الناس .

ومما يؤكد ذلك ما يقدمه لنا ابن هشام في سيرته بقوله :

« قال ابن اسحاق : اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم ،عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً .

فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض :

« تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض » . قالوا أجل .

وهم : ورقة بن نوفل .

وعبد الله بن جحش بن رياب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب .

وعثمان بن الحويرث .

وزيد بن عمرو بن نفيل .

فقال بعضهم لبعض :

تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ؟؟

يا قوم : التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

أما ورقة بن نوفل : فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

يقول عنه صاحب الأغاني: أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية، وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع من أكل ذبائح الأوثان .

وتعلم العبرانية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب .

ولم يكن أمر معرفته وعلمه مجهولاً بين قومه ، ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبي ﷺ ، لتستفسر عما عرض للرسول من أمر الوحي فأفادها وطمأنها .

تقول عائشة رضي الله عنها :

« أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث[1] فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع[2]

---

(١) الحنث : التعبد .

(٢) نزع : رجع .

إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال :

إقرأ .

قال : فقلت : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذني فغطني [1] حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

فقلت : مـا أنا بقارىء ؟.. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) [2] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف بها فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال :

« زملوني ، زملوني » [3] .

فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة – وأخبرها الخبر – لقد خشيت على نفسي ، فقالت له خديجة :

---

(١) غطه : ضغطه بشدة .
(٢) سورة العلق آية رقم ١ – ٥ .
(٣) التزميل : التغطية والتلفف في الثوب .

« كلا أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل – وهو ابن عم خديجة – وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

فقالت له خديجة :

« يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك » .

فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟..

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة :

« هذا الناموس [1] الذي نزّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً [2] ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك » .

فقال له رسول الله ﷺ : أومخرجي هم ؟..

قال : نعم ، لم يأتِ رجل بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي [3] .

---

(١) الناموس : صاحب سر الملك الذي لا يحضر إلا بخير ، ولا يظهر إلا الجميل ، وسمي جبريل عليه السلام ناموساً ، لأنه مخصوص بالوحي والغيب اللذين لا يطلع عليهما أحد من الملائكة سواه .

(٢) جذعاً : الجذع هنا كناية عن الشباب . يقول يا ليتني كنت شاباً عند ظهورك .

(٣) راجع البخاري في بدء الوحي ، وفي تفسير سورة إقرأ ، ومسلم رقم(١٦١)في الإيمان باب بدىء الوحي .

وكان ورقة شاعراً ناضج التفكير في شعره ، ومثال ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم   أنا النذير ، فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلهاً غير خالقنـــا   فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد

إلى أن قال :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودى المال والولد

وأما عبيد الله بن جحش : فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدمها تنصر .

وأمـــا عثمان بن الحويرث : فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسنت منزلته عنده .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل ، فهو عم سيدنا عمر بن الخطاب ، وهو والد سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وكان أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل مـــا ذبح باسمها ، وكثيراً ما أنكر على قريش ذبحها على غير اسم الله قائلاً :

« يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحونها لغيره ؟..

ولقد حاول زيد بن عمرو أن يحل ألغاز الكون .

من أين جاءت الحياة ؟..

وإلى أين تذهب ؟..

ولِمَ كانت على هذه الصورة ولم تكن على غير ذلك ؟..

إلى الكثير من التساؤلات .. وأخيراً خرج ظاعناً إلى الشام يسأل عن الدين الحق ليتبعه ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم قائلاً له : لعلي أدين بدينكم فأخبرني به ؟.

فقال اليهودي : إنك لا تكون على ديننـــا ، حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

فقال زيد : لا أفر إلا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟..

قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً .

قال : وما الحنيف ؟..

قال : دين إبراهيم .

فخرج من عنده وتركه . فأتى عالماً من علماء النصارى ، فقال له نحواً مما قال لليهودي .

فقال له النصراني : إنك لن تكون على ديننا ، حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله .

فقال : إني لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنا أستطيع فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟..

فقال له نحواً مما قال اليهودي : لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً .

فخرج من عندهما ، وقد رضي بما أخبراه واتفقا عليه من دين ابراهيم

فلما برز رفع يديه وقال :

« اللهم إني على دين إبراهيم » .

الآية الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾

صدق الله العظيم

سورة النور : آية رقم ٦ – ٧

أقوال العلماء في نزول هذه الآيات

قال بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في هلال بن أمية .

قال ذلك الإمام الطبري في تفسيره جـ ١٨ ص ٦٦ .

وقاله صاحب الدر المنثور جـ ٥ ص ٢٣ .

وصاحب تفسير الطبري جـ ١٠ ص ١٨٤ .

وصاحب تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٦٧ .

وقاله صاحب كتاب أسباب النزول الإمام الواحدي ص ٣٢٩ .

فمن هو هلال بن أمية ؟..

هلال بن أمية

رضي الله عنه

هلال بن أميّــــة
رضي الله عنه

مَن هلال بن أمية ..؟ كيف كانت طفولته وشبابه ..؟ متى دخل في الإسلام ونطق بكلمة التوحيد ، وصدق بمحمد رسول الله ﷺ ؟ لا أحد يدري ..

إلا أنه أحد المسلمين الذين دخلوا في دين الله أفواجاً ، وشهد غزوة بدر مع الرسول ﷺ .

ولقد تناوله القرآن في موضعين :

الأول : عندما تخلف مع المتخلفين في غزوة تبوك .

الثاني : عندما رمى زوجته بشريك بن سحمان .

أما لماذا تخلف عن غزوة تبوك .. وما هي الأسباب التي حالت بينه وبين اللحاق برسول الله ﷺ فالإجابة على ذلك يقتضينـــــا أن نلقي بعض الأضواء على غزوة تبوك .

فنقول : إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمن عُسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد .

ثم إن رسول الله جدّ في سفره وأمر الناس بالجهاز ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله .

فحمل رجال من أهل الغنى ، واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، لم ينفق أحد مثلها .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض » .

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا أجد ما أحملكم عليه » .

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

ثم سار رسول الله ﷺ ، وقـــد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ ، حتى تخلفوا عنه .

تخلفوا من غير شك ولا ارتياب ، منهم :

كعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة .

ومرارة بن ربيع أخو بني عمرو بن عوف .

وهلال بن أمية أخو بني واقف .

وأبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف .

وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم .

أما أبو خيثمة فإنه بعد أيام من سفر رسول الله ﷺ ، رجع إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في خيمتين قد رشت كل واحدة منها عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً .

فلما دخل قام على باب الخيمة ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال :

« رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام

مهيأ وامرأة حسناء في مال مقيم ، ما هذا بالنصف » .

ثم قال :

« والله لا أدخل خيمة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زاداً، ففعلتا » .

ثم ركب فرسه وخرج في طلب الرسول ﷺ .

حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك .

قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل .

فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة .

فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله :

« أولى لك يا أبا خيثمة » .

ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر .

فقال له رسول الله خيراً ، ودعا له بخير .

وفي ذلك يقول أبو خيثمة :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعفّ وأكرما

وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثماً ولم أغْشَ محرما

تركت خضيباً في العريش وصرمة ... صفايا كراماً بُسْرُها قد تحمما

وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسي شطره حيث يمما

هذا ما فعله أبو خيثمة ، فلماذا لم يفعل هلال بن أمية ما فعله زميله ؟..

إن الروايات تترى عنه بأنه رجل صالح تقي ، يحب رسول الله ﷺ ويلتزم أوامره ..

أهناك ظروف حالت بينه وبين ذلك ؟..

إن وقائع التاريخ تذكر أنه كان يملك المال والراحلة..وليس هناك ما يعوق أو يحول بينه وبين الذهاب ..

وعاد الرسول ﷺ من هذه الغزوة .

وكانت من أولى أوامره لجماعة المسلمين :

« لا تكلموا أحداً من هؤلاء الثلاثة » :

كعب بن مالك .

ومُرارة بن الربيع .

وهلال بن أمية .

يقول كعب بن مالك : هل لقي هذا أحد غيري ؟..

قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك .

قلت : من هما ؟..

قالوا : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة ، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة .

فاجتنبَنا الناس وتغيّروا لنا .

ثم يقول : فأقمنا على ذلك حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول رسول الله يأتيني فقال :

« إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك » .

قلت : أطلّقها أم ماذا ؟..

قال : لا ، بل اعتزلْها ولا تقربها ، وأرسلَ إلى صاحبي بمثل ذلك .

فقلت لإمرأتي : إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هـذا الأمر ما هو قاض . .

فماذا كان من أمر هلال بن أمية عندما وصل له هذا الخبر ؟ . .

يقال : جاءت إمرأته رسول الله ﷺ فقالت :

« يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟ . .

قال : لا ولكن لا يقربنك .

قالت : والله يا رسول الله ما به من حركة إليّ ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

. . إنهـــا دموع التوبة ، دموع الندم ، عن التخلف عن رسول الله ﷺ ، وعدم الإستجابة الفورية لما أمر .

إنه الصراع الحنيف مع النفس البشرية ، التي أحسّت أنها أخطأت في حق نفسها وفي حق رسولها وفي حق ربها .

عندها تاب اللهُ عليهم إنه هو التوّاب الرحيم ، قال تعالى :

(لقد تاب اللهُ على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين ُخلـّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) [1] .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٧ – ١١٨ .

هذا هو الموضوع الأول الذي ذكر فيه القرآنُ هلالَ بن أمية مع زميليه الذين تخلفا في غزوة تبوك ..

أما الموضوع الثاني: فيذكر الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس قال:

لما نزلت (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) .

قال سعد بن عبادة – وهو سيد الأنصار – رضي الله عنه :

« أهكذا أنزلت يا رسول الله » ؟..

فقال رسول الله ﷺ :

« يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم » ؟..

فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج إمرأة قط إلا بكراً ، وما طلق إمرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته .

فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم إنها الحق وإنها من (الله) ، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ، ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته .

قال : فما لبثوا إلا يسيراً – حتى جاء هلال بن أمية – وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ ، فقال :

« يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني » .

فكره رسول الله ﷺ – ما جاء به – واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار ، وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة .

الآن يضرب رسولُ الله ﷺ هلالَ بن أمية ويبطل شهادته في الناس .

فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ، وقال : يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق .

فوالله إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحي :

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحـــدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) [1] .

متى حدث هذا مع هلال بن أمية ؟..

أحدث ذلك قبل غزوة تبوك أم بعدها ؟..

ومَنْ مِنْ أزواجه التي حدث معها ذلك ؟..

إننا نرجح أن تكون هــذه الحادثة وقعت قبل غزوة تبوك ، لأن هلال بن أمية في غزوة تبوك كان شيخاً هرماً لا يتحرك إلا بصعوبة ، وليس له في النساء رغبة كما تحدثت بذلك زوجته أمام رسول الله ﷺ ..

وإذا كان ذلك كذلك فمَن مِن زوجاته التي حدث معها ذلك ؟..

لقد كان متزوجاً من الفريعة بنت مالك بن الدخشم .

والدها مالك بن الدخشم ، شهد العقبة في قول ابن اسحاق ، وشهد بدراً وهو الذي أسر يوم بدر سهيل بن عمرو ، وفي ذلك يقول :

أسرت سهيلا فــلا أبتغي أسيراً به من جميع الأمم
وخندف تعــلم أن الفتى فتاهــا سهيل إذا يظلم

(١) سورة النور آية رقم ٧ .

ضربت بذي الشفر حتى انثنى وأكرهت نفسي على ذي العلم[1]

وأرسله الرسول ﷺ مع معن بن عدي فأحرقا مسجد الضرار .

فهو رجل مسلم مجاهد في سبيل الله ، وجندي من جنود الدعوة الإسلامية .

وعن أنس بن مالك قال : ذكر مالك بن الدخشم عند النبي ﷺ فسبوه ، فقال النبي ﷺ :

« لا تسبوا أصحابي » .

والسؤال الذي نطرحه ، أيمكن أن تفعل فتاة من فتيات هذا الرجل المجاهد هذا العمل ؟..

ومَنْ فتاة محصنة تعيش في عصمة رجل ؟..

ونشأت في بيت إيمان وتقوى . وجهاد وشهادة .. إننا نستبعد أن يحدث ذلك منها .

وإذا لم تكن هذه الزوجة أتكون الثانية ؟..

إن الزوجة الثانية – هي مليكة بنت عبدالله بن أبي سلول – زعيم المنافقين في المدينة .

فوالدها : عبد الله بن أبيّ كبير المروّجين لحادث الإفك ، وكان يرمي من وراء ذلك إلى الطعن في عِرض النبي ﷺ ، وعِرض أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأن يضع من المكانة الخلقية للحركة الإسلامية .

ووالدها أيضاً : كان له عديد من الجواري اللواتي يزاولن حرفة البغـاء بغية الكسب والربح . وأرادت إحداهن أن تتوب بعد أن أسلمت ، ولكنه تشدّد عليها ، فأقبلت إلى أبي بكر رضي الله عنه وشكت ذلك إليه ، فذكره للنبي ﷺ فأمره بقبضها .

---

(١) سيرة ابن هشام .

فصاح عبدالله بن أبيّ : مَن يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا .

فأنزل الله تعالى : (ولا تُكرهوا فتياتكم على البغــاء إنْ أرَدْنَ تحصُّناً لتبتغوا عرَضَ الحياة الدنيا ، ومَن يُكرههنَّ فإن الله من بعد إكراههن غفورٌ رحيم) [1] .

أتكون ابنة عبدالله بن أبيّ صاحبة هذه الحادثة المشهورة ؟..

إن ما بيننا من نصوص وأدلة لا تصل بنا إلى درجة اليقين لنحكم في هــذه القضية لهذه أو لتلك ، والله وحده هو أعلم بذلك .

وبعد هذا مَن المتهم مع زوجة هلال بن أمية ؟..

أهو رجل من الكافرين المشركين ؟..

أم أنه رجل من هؤلاء المنافقين الذين يُظهرون إسلامهم ويُبطنون كفرهم ؟.

إنه لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ..

فهو رجل مسلم – صادق الإيمان – يسمى شريك بن سحماء ، وسحماء هذه هي أمه ، واسم أبيه : عبدة بن مغيث .

وهو أخ للبراء بن مالك من أمه .

البراء الذي قال فيه رسول الله ﷺ :

« كم من ضعيف مستضعف ذي طِمرين لا يُؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك » .

يقول ابن إسحاق : زحف المسلمون إلى المشركين في اليمامة حتى ألجأوهم إلى الحديقة ، وفيها عدو الله مسيلمة ، فقال البراء :

« يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم » .

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٣ .

فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم فقاتلهم على الحديقة حتى فتحها على المسلمين وقتلوا مسيلمة .

وشريك هذا بعثه أبو بكر الصديق رضي الله عنه رسولاً إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة أن يسير إلى العراق ..

وعندما قام بسفارته بين خليفة رسول الله ﷺ وبين القائد ، أصدر أمره أبو بكر بجعله أميراً من أمراء الشام .

وبعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسولاً إلى عمرو بن العاص، حين أذن له أن يتوجه إلى فتح مصر ..

أيمكن أن يحدث هذا الفعل من هذا الرجل ؟..

إن الآراء تضطرب في ذلك أشد الاضطراب.. ولكن الحادثة وقعت فعلاً ، ومع إحدى زوجات هلال بن أمية ..

حتى قال الرسول ﷺ عن هذه المرأة :

« لولا الأيمان لكان لي ولها شأن » .

رحم الله هلال بن أمية وأسكنه فسيح جناته .

لما نزلت : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء – إلى قوله تعالى – الفاسقون) ..

قال سعد بن عبادة – وهو سيد الأنصار – : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟..

فقال رسول الله ﷺ :

« ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟.. »

قالوا : يا رسول الله ، إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، ولا طلّق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها ، من شدة غيرته .

فقال سعد : والله يا رسول الله ، إني لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا احركه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته . فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشية فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال :

– يا رسول الله ، إني جئت أهلي عشياً فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني .

فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه .

فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته في المسلمين .

فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً .

ثم قال : يا رسول الله ، إني قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به ، والله يعلم إني لصادق .

فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي – وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّدِ جلده – فأمسكوا عنه حتى إذا فرغ من الوحي ، فنزلت :

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) الآيات كلها ... فسري عن رسول الله ﷺ فقال :

« أبشرْ يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » .

فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي .

فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوا إليها » . فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا .

فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها .

فقالت : كذب .

فقال رسول الله ﷺ : « لاعنوا بينهما » .

فقيل لهلال : اشهد .. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له :

« يا هلال اتقِ الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب » .

فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها .

فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين .

ثم قيل للمرأة : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . وقيل لهـا عند الخامسة : اتقِ الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليكِ العذاب .

فتلكأت ساعـة وهمّت بالاعتراف .. ثم قالت : والله لا أفضح قومي ، فشهدت الخامسة : أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدهـا لأب ، ولا يرمى ولدها ، ومَن رمى ولدها فعليه الحد .

وقضى رسول الله ﷺ أن لا بيت لهـا عليه ، ولا قوت لها ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها . وقال :

« إنْ جاءت به أصيهب [1] أريسح [2] حمش الساقين [3] فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق [4] جعـداً [5] جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين فهو للذي رميت به » .

فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين .

فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لي ولها شأن » .

---

(١) أصيهب : تصغير أصهب ، وهو الذي في شعره حمرة .

(٢) أريسح : تصغير أرسح ، وهو خفيف لحم الإليتين .

(٣) حمش الساقين : دقيقهما .

(٤) أورق : أسمر .

(٥) جعداً : شديد الاسر والخلق والذي شعره غير سبط، وهما مدح . والقصير المتردد الخلق والبخيل ، وهما ذم .

تذييـل ...

لماذا تخون المرأة زوجها..؟ وتلتقي بآخر لتعاشره معاشرة الأزواج ، تفعل ذلك وهي لا زالت في عصمة الأول .

أهناك ملابسات وظروف داخلية وخارجية تدفع المرأة إلى ذلك ؟..

وإذا كان فما هي الملابسات والظروف التي تدفع المرأة إلى الخيانة الزوجية مضحية بسمعة الزوج ، وشرف الأسرة ، وتاركة جسدها لقمة سهلة طرية بين أنياب الذئاب والخنازير البشرية ؟.

أيكون للفراغ الذي تعيش فيه بعض الزوجات فترة كبيرة من الوقت بعيدة عن زوجها عامل من عوامل الخيانة ؟..

إننا كثيراً ما نرى في عصرنا الراهن بعض رجال الأعمال والتجارة،ومجموعة من الأطباء ، وأساتذة الجامعات ، ورجال القضاء والنيـابة ، يلقى عليهم من الأعمال والتكاليف ، ما يستغرق كل يومهم ، وجزءاً كبيراً من ليلهم ، وتترك الزوجات هذه الفترات الطويلة ، لا يشغلهن شاغل ولا يقطع وحدتهن أنيس .

هنا يداعبهن الشيطان بوساوسه ، ويدغدغ أعصابهن ، ويدفعهن دفعاً الى الجريمة ..

وإذا لم يكن للفراغ هـــذا العامل في الخيانات الزوجية ، أيكون للجوعة الجنسية الأثر الكبير في ذلك .

لأننا نلحظ أن بعض الرجال – وهم في خريف العمر – يلجأون إلى الزواج من فتيات صغيرات في مقتبل الشباب ، فيكون للقاء الخريف مع تفتح الربيع أثر كبير في نفور الزوجة من زوجهـــا ، وتطلعها إلى شاب آخر في مثل سنها يبادلها المتعة الحرام ، واللذة الآثمة .

ونستطيع أن نقول إذن، بأن الاختلاف البيّن بين عمر الرجل والزوجة أثر كبير وعامل فعال في الخيانات الزوجية .

أم أن هذا غير واقع في الجملة – وكثيراً ما نرى فتيات صغيرات يعشن مع أزواج في عمر آبائهن وهن سعداء في حياتهن – مغتبطات بأزواجهن .

أنقول بأن التباين في عمر الزوجين ليس عاملاً من عوامل الخيانة الزوجية .

وإذا لم يكن التباين عاملاً من عوامل الخيانة فماذا يكون ؟..

أيكون العامل الاقتصادي ، ودخل الزوج عاملاً من هذه العوامل ؟..

إن المرأة في الجملة تحب الذهب واللآلىء .

وتأخذ بلبها الجواهر الغالية ، والأشياء الثمينة .

وإذا كانت الجدات قديماً ، كن يهوين جمع حبات الخرز ، وقطع الزجاج ، ويتزينّ ببعض أسنان الحيوانات المفترسة ، وببعض الأصواف والأوبار والخفيف المزركش من ريش الطيور .

فإن المرأة في القرن العشرين، هي جامعة التحف ، وحائزة النادر فهي تحب هذه الجوهرة شريطة ألا تكون لهـــا ثانية تشاركها في التزين بها ، وتحب هذا الفستان ، وتجري لاهثة حول بيوت الأزياء لتحصل على كل ما يبهر العين ، ويلفت النظر ويسرّ القلب ، ويلوي أعناق الرجال .

هكذا المرأة كانت في العصور السابقة .

وهكذا المرأة في عصرنا الراهن الذى نعيش فيه .

وهكذا ستكون المرأة في كل العصور ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فإذا لم تحصل المرأة على حاجتها من طريق زوجها ، أو بالطرق المشروعة لجأت إلى طرق أخرى غير مشروعة ، إما أن تمد يدها إلى مدخرات زوجها أو أبيها ، تختلس منها ما يحقق لها شراء هذا الفستان مرة ، والجوهرة الثالثة مرة أخرى ، وهكذا .

فإذا سُدت أمامهـا الطرق وأقفلت في وجهها النوافذ ، لجأت إلى الطريق الآخر طريق الشيطان تغازل الأخدان ، وتستهوي العشاق ، وتتلصص في غفلة من الزوج لتحقق للجياع أغراضهم ، ويحققون لها رغباتها من شراء هـذا ، وحيازة ذلك .

إننا نقرر أن السبب الحقيقي للخيانات الزوجية ، هو غياب الوعي الإسلامي الصحيح وإبعاد الأخلاق والأحكام الإسلامية عن المجتمع ، وإحلال قوانين وأخلاق الغرب الماجنة الساقطة محلها .

أما ما ذكرناه من :

الفراغ الذى تعيش فيه بعض الزوجات .

الفارق الكبير بين سن الرجل والزوجة .

تطلع المرأة إلى ما يرضي غرورها ويزين جيدها وعنقها .

لقد احتاط الإسلام لهذه العوامل ، ووضع الضمانات الكافية لسلامة الأسرة ، والحفاظ على كيانها وعرضها .

فالرجل يسعى في فجاج الارض ، ويضرب في جنباتها شريطة ألا يشغله ذلك عن بيته وزوجته .

ويلحظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الجانب، فيصدر أوامره والجنود في معركة ، والحرب قائمة بيننا وبين الأعداء بعدم بقاء الجندي في سفرته البعيدة في بلاد الأعداء أكثر من ثلاثة شهور ، حتى يعود إلى الزوجة الصابرة المؤمنة يقضي معها فترة من الزمن ، ثم يعود بعدها إلى ميدانه .

وأيضاً حتى تقوم الأسرة على سياج متينة من الخلق والدين، يشترط في الزواج التكافؤ .

لا بد أن يكون هناك تكافؤ بين الرجل والمرأة ، تكافؤ في الحرية وتكافؤ في البنية ، وتكافؤ في تقارب الأعمار .

وعندما لجأ أحد الصحابة وهو جابر بن عبد الله رضي الله عنه إلى الزواج من ثيب .

قال له الرسول ﷺ :

« هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟ » .

فالثيب للثيب ، والبكر للبكر .

وكلمة التكافؤ : كلمة واسعة يدخل فيها كل البنود والشروط التي تحقق أمن الأسرة ، وتضمن سلامتها ، وتصون عفافها .

ولم يكتفِ الإسلام بذلك ، بل وضع ضمـــانات في المجتمع ، وحذّر من الاختلاط ، الاختلاط الذي يجعل الرجل يلحظ الفتيات الجميلات ، ويزين له الشيطان جمالهن وحسنهن فيرديه في الرذيلة ، والاختلاط الذي يجعل المرأة تقابل الرجال ، وتخادن الشباب ، وتلتقي بهم في أوقات متتابعة ، فيقع ما حذر الرسول ﷺ منه « ما اجتمع رجل وإمرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما » .

ونحن نعيش في عصر موار بالفتن ، صخاب بكل عجيب ، ينقل إلينا الفتنة إلى داخل بيوتنا ومخادعنا .

فالفتنة في « المذياع » عن طريق الأغنية الخليعة ، والمسلسل الماجن والكلمة القبيحة ، والصوت المخنث .

والفتنة في « التلفاز » بالصورة المجسمة ، والفتنة الطاغية وأساليب الشيطان التي تلقن الزوجات طريق الخيانة ، وتبرر لهن الرذيلة وتشجع عليها ، وتقدّم أسهل الطرق لذلك .

والفتنة عن طريق الصحافة : التي تحاول أن تصنع المجتمع ليكون صورة من الغرب الهابط .

فالمخادعة بين العشاق طريق إلى الحضارة .

والخيانة الزوجية وسيلة إلى الحرية .

والعفة ، والشرف ، والأمانة ، عند صحافة القرن العشرين دعوة إلى الرجعية ، دعوة إلى الهمجية ، دعوة إلى التأخر .

.. فمتى يستيقظ العالم الإسلامي .. ويجعل من هذه الوسائل الثلاث أعمدة للبناء ، أعمدة للخير ، أعمدة للتطهير من الرذيلة ، والتربيـة للفضيلة ، والعمل لخير البشرية قاطبة .

متى يحدث هذا يا رب ؟.

إنا لمنتظرون .

الآية السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ
اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

صدق الله العظيم

سورة آل عمران : آية رقم ٧٧

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير : نزلت هذه الآية في الأشعث بن قيس .

قال ذلك صاحب الدر المنثور جـ ٢ ص ٤٤ .

وقاله الإمام الطبري في تفسيره جـ ٦ ص ٥٢٩ .

وذكره الإمام البخاري في صحيحه جـ ٣ ص ١١٠ .

وهو فيه أيضاً جـ ٣/ ١٢٢ ، ١٤٣ ، ١٧٧ – ١٧٩ .

جـ ٦/ ٣٤ جـ ٨/ ١٣٤ – ١٣٧ – ١٣٨ جـ ٩/ ٧٢ ، ١٣٣ .

وذكره الإمام أحمد في مسنده جـ ٣/ ١١٣ ، ١١٧ .

فمن هو الأشعث بن قيس ؟..

الأشعث بن قيس

رضي الله عنه

الأشعث بن قيس
رضي الله عنه

.. هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية ، يكنى أبا محمد ، نشأ على بطاح اليمن .. تلك البلاد التي كان لها دور في التاريخ ، وتجول في أرجائها هدهد ، واخترقت بطاحها رسالة نبي .. فخضعت لها ملكة صاحبة دولة وسلطان ...

ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى :

(وتفقَّدَ الطيرَ فقال ما لِيَ لا أرى الهدهدَ أمْ كانَ من الغائبينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بسلطانٍ مُبينٍ . فمكثَ غيرَ بعيدٍ فقال أَحطْتُ بما لم تُحِطْ به وجئتكَ من سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقينٍ . إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتِيَتْ من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ . وجدتُها وقومها يسجدونَ للشمسِ من دونِ اللهِ وزَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالهمْ فصَدَّهم عنِ السبيلِ فهم لا يهتدون) .

إلى قوله تعالى :

(قيلَ لها ادخلي الصَّرْحَ فلَمَّا رأته حَسِبَتْهُ لُجَّةً وكشفتْ عن ساقَيْها ، قال إنه صرحٌ ممرَّدٌ من قوارير ، قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمانَ للهِ ربِّ العالمين) [1] .

وكان الأشعث يسمى : « عرف النار » .

ونتساءل : كيف كانت طفولته ؟.. وكيف قضى مرحلة شبابه ؟..

يصمت التاريخ عن ذلك فلا يتحدث عنه من قريب أو بعيـــد ، سوى أنه كان رئيساً مطاعاً في كندة .

ثم ماذا ؟.. سمع بدعوة الإسلام ، وبدخول الناس أفواجاً في هـذا الدين ، فقدِمَ إلى الرسول ﷺ في ثمـــانين راكباً من كندة ، ودخلوا على رسول الله مسجده وقد رجـلوا شعورهم ، وتكحلوا ، عليهم جبب الحبرة وقد كففوها بالحرير ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال : « ألم تسلموا ؟.. »

قالوا : بلى . قال : « فما بال هذا الحرير في أعناقكم ؟..

فشقوها وألقوها .

ثم قال الأشعث : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار .

فتبسّم رسول الله ﷺ وقال :

« ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث » .

وكان العباس وربيعة تاجرين ، وكانا إذا شاعا في بعض العرب فسئلا ممن هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار ، يتعزون بذلك .

---

(١) سورة النمل ، الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ – وآية ٤٤ .

ثم قال لهم رسول الله ﷺ : « بل نحن بنو النَّضْر بن كنانة ، لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا » .

فقال الأشعث : هل فرغتم يا معشر كندة ؟ والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين (١) .

ثم عاد الوفد إلى بلده ، بعد أن تفقهوا في دينهم ، وعرفوا بعض شرائع الإسلام . واستمر الحال على ذلك .. حتى وفاة الرسول ﷺ .

وارتدّت بعض قبائل العرب .. وكان الأشعث أحد الذين ارتدّوا عن دينهم ورغبوا عن الإسلام .

وعلم الخليفة أبو بكر بارتدادهم ، فأرسل اليهم المهاجر بن أمية في جيش كبير فحاربهم وتغلب عليهم ، واستطاع أن يظفر بالأشعث ويقبض عليه . ولما مَثلَ بين يديه قال المهاجر :

« الحمد لله الذي خطأ فاك يا أشعث يا عدو الله ، فقد كنت أشتهي أن يخزيك الله » .. وشدّه كتافاً ..

فقيل له : أخِّرْهُ وَسيِّرْهُ إلى أبي بكر ، فهو أعلم بالحكم فيه ، فسيّره إلى أبي بكر مع السبي .. فكان المسلمون يلعنونه ، ويلعنه سبايا قومه ، وسمّته النساء « عرف النار » وهو اسم الغادر عندهم .

فلما قَدِمَ المدينة قال له أبو بكر : ما تراني أصنع بك ؟..

قال : لا أعلم .

قال : فإني أقتلك .

قال : فأنا الذي راوضت القوم في عشرة فما يحلُّ دمي .

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٥٤ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٨ .

قال : إنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على مَن فيها ، وإنما كنت قبل ذلك مراوضاً .

فلما خشي القتل قال : أوتحتسب فيّ خيراً فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وترد عليّ زوجتي ؟

وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر ، لما قـدِمَ على النبي ﷺ مع وفد كندة .

وأم فروة هذه كانت من المبايعات ، بايعت رسول الله ﷺ ، حديثها عند قاسم بن غنام الأنصاري عن بعض أمهاته ، عن أم فروة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أحَبَ الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة في أول وقتها » (١) .

فإنْ فعلتَ ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله .

فحقن أبو بكر دمه وردّ عليه أهله ، وأقام بالمدينـة في حياة أبي بكر رضي الله عنه ..

وولد له محمد وإسحاق وحبابة وقريبة (٢) .

ثم كانت معركة القادسية .. تلك المعركة التي كان لها دويّ في سمع التاريخ وانتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً .. وأحسّ عمر بن الخطاب بضراوة الفرس وكثرة عددهم ، فأرسل الأشعث مدداً لسعد بن أبي وقاص في ألف وسبعمائة من أهل اليمن ..

وعندما التقى به سعد فوق تلك الأراضي البعيدة ، رحّب به ، وأوصاه ألا

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ١٩٤٩ .
(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٨١ .

يؤخذ المسلمون من قبله ، ثم جمله أحد الرسل الذين أرسلهم سعد إلى « يزدجرد » ملك الفرس .

وسار هؤلاء الرجال كل منهم جيش وحده :

النعمان بن مقرن .

وبُسر بن رهم .

والأشعث بن قيس .

وعاصم بن عمرو .

ولما وصلوا إلى ساحة «يزدجرد» اجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صُهَال ، وعليهم البرود ، وبأيديهم السياط . فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال : سَلْهُم ما جاء بكم ، وما دعاكم إلى غزونا والتوغل ببلادنا ؟.. أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟..

فقال النعمان بن مقرن لأصحابه : إن شئتم تكلمت عنكم ، ومَن شاء آثرته .

فقالوا : بل تكلم .

فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة إلا وقاربه منها فرقة ، وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمر أن ينبذ إلى مَن خالفه من العرب ، فبدأ بهم فدخلوا معه على وجهين .

فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف .

فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّنَ الحسن وقبَّحَ القبيح كله ، فإنْ أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر هو الجزية . فإنْ أبيتم فالمناجزة ، فإنْ أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم

وشأنكم وبلادكم ، وإنْ بذلتم الجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم [1] .

فتكلم « يزدجرد » فقال :

« إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بينٍ منكم . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم ، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس ، فإن كان غرر لحقكم فلا يغرّنكم منا ، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم . فأسكت القوم » .

فقام المغيرة بن زرارة فقال :

« أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، فجاوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك لي .

فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد ، ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبي ﷺ إليهم ، ثم قال له :

– إختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر ، وإن شئت السيف ، أو تسلم فتنجي نفسك ؟..

فقال : لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي » [2] .

ثم تتابعت الرسل بينهم – وكانت المعركة الفاصلة – بين الفرس والعرب . وقام الأشعث في قومه كندة فقال :

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٥٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٥٧ . والبداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٤٧ .

« لله در بني أسد أي فري يفرون وأي هذي يهذون ، ثم نهد ونهدوا معه فأزالوا الذين بازائهم حتى فتح الله عليهم » .

.. وكان الأشعث بن قيس أحد الذين قصدوا خالد بن الوليد بعد انتصاره في معركة اليرموك ، فأجازه بعشرة آلاف .

نعم عشرة آلاف ، والتي تكفي في ذلك الوقت لتجهيز جيش كامل .

فلما سمع عمر بن الخطاب بما أخذه الأشعث ، كتب إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته ، حتى يعلم من أين أجاز الأشعث .

أمِنْ ماله أم من مال إصابة أصابها ؟..

فإن زعم أنه فرّقه من إصابة أصابها ، فقد أقرّ بخيانة .

وإن زعم أنه من ماله فقد أسرف .

واعزله على كل حال واضمم إليك عمله .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ثم سأل خالداً من أين أجاز الأشعث ؟.

فلم يجبه .

فقام بلال فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ونزع عمامته ، فلم يمنعه سمعاً وطاعة ، ووضع قلنسوته ثم أقامه فعقله بعمامته وقال :

من أين أجزت الأشعث ، من مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ؟..

فقال : بل من مالي ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال :

« نسمع ونطع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » [1] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٥٣٦ .

إن كان المال الذي قدمه للأشعث من مال المسلمين فقد خان الأمانة ، وهذه صفة لا يصح أن يتصف بها قائد .

وإن كان المال الذي قدمه من ماله الخاص فقد أسرف ، والقـائد المسرف لا يؤتمن على جنوده ..

فلا بد من عزله .. وعُزِلَ خالد ، وكتب إليه عمر بالإقبال عليه ..

فرجع خالد إلى قنسرين فخطب الناس .. وعلم جنوده بعزله . فقام إليه أحد الرجال وقال :

كيف تعزل يا خالد ، وأنت في قمة الانتصار ؟.. إنها الفتنة سنملؤها خيلا ورجلا على ابن الخطاب في المدينة .

إن هذا الرجل يريد من خالد أن يعزل عمر ، يريده وهو القـائد أن يأمر جيشه بالتوجه إلى مقر الخلافة ، ويعزل الرجل الجالس فوقها .

ولولا فعل ذلك خالد – وهو بيده الجيش – مـــا توقف أحد في طريقه ، ولكن الرجل الذي تربى في مدرسة الإسلام قال لمن يدعوه إلى الثورة والتمرد:

.. لا يا أخي ..

« إن الأمة الإسلامية التي حطمت دولة الفرس ، وأزالت عروش الروم ، ليست في حاجة الآن إلا سيف خالد .

إن حاجتها إلى عقل عمر أكثر من حاجتها إلى سيف خـــالد ، ومحال أن تكون فتنة وابن الخطاب موجود .

وسار إلى المدينة ، فلما قدم على عمر شكاه وقال : قد شكوتك إلى المسلمين فبالله إنك في أمري لغير مجمل ، فقال له عمر :

من أين هذا الثراء ؟..

قال : من الأنفال والسهمان ، ما زاد على ستين ألفاً فلك ؟..

فقوّم عمر ماله ، فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ثم قال :

« يا خالد والله إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب » .

وكتب إلى الأمصار : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فخّموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة وعوّضه عما أخذ منه » [١] .

إنهم رجال مدرسة القرآن وأتباع محمد ﷺ، صنعهم على عينه وأدبهم بأدب ربهم من كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكن أين صوت الأشعث فيما حدث لخالد ؟.. إن التاريخ يغفله في تلك اللحظة ولا يتحدث عنه في مجالس عمر ، ولا في الحروب التي كانت بعد معركة القادسية .. أين هو ..؟ وفي أي البـلاد كانت إقامته ؟.. لا أحد يدري حتى كانت خلافة عثمان رضي الله عنه .

فيصدر عثمان أمره بتولية الأشعث إمارة « أذربيجان » [٢] ، ويستمر فيها حاكماً وأميراً لم تسمع عنه شكوى..ولم يقصر في أمر من أمور الولاية، واعتزل الفتنة وآثر البقاء في ولايته حتى قتل عثمان ، واضطربت الأمور وعمت البلوى التي لم يسلم منها أحد .. وفي وسط هذا الظلام الدامس الذي لفّ المسلمين في تلك الفترة ، تمت بيعة عليّ رضي الله عنه .

وأراد الإمام علي أن يأخذ بيعـة الأمصار ، فاتجه إلى البصرة وأرسل منها إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان عاملاً على « همذان » وإلى الأشعث بن قيس وكان أيضاً على « أذربيجان » ، وأمرهما بأخذ البيعة له والحضور عنده ، ونفذا ما طلب منهما .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٤٧ .

واستمر الحال على ذلك حتى كانت موقعة صفين ، وجاء الأشعث بجيش كبير وانضم إلى جيش الإمام علي . ولقد حاول رجال معاوية في تلك الموقعة أن يمنعوا الماء عن جيش علي رضي الله عنه ، فلما سمع الإمام علي بما يريده جيش معاوية قال : قاتلوهم على الماء .

فقال الأشعث بن قيس : أنا أسير إليهم ، فسار إليهم مع مجموعة من الجنود ، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم ، واستطاع الأشعث وجنوده أن يحلوهم عن أماكنهم .

فلما رأى معاوية ما فعله الأشعث بجنوده أرسل إليهم يزيد بن أسد البجلي ، وأرسل عليٌ مدداً للأشعث شبث بن ربعي الرياحي . وازداد القتال وقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب علي .

فقالوا : والله لا نسقيه أهل الشام .

فأرسل عليّ إلى أصحابه : أن خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم ، فإن الله نصركم عليهم ببغيهم وظلمهم [1] .

ثم استأنف القتال مرة اخرى ، واستطاع أهل العراق أن يزيلوا أهل الشام عن أماكنهم ، وأوشكت الدائرة أن تدور عليهم .

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك ، قال لمعاوية :

– هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟..

قال : نعم .

قال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٨٤ – ٢٨٥ . والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ٢٧٩ .

بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم مَن يقول : ينبغي لنــا أن نقبل ، فتكون فُرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : « هـــذا حكم ، كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » .

فلما رآها الناس قالوا : نجيب إلى كتاب الله .

فقال لهم عليّ :

« عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معـــاوية وعمراً وابن أبي معيط وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرَف بهم منكم قــد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال .. ويحكم ! والله ما رفعوها إلا خديعة ووهناً ومكيدة » .

فقالوا له : لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله [1] .

فقال لهم علي : فإني إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه .

فقال الأشعث بن قيس : أرى الناس قد رضوا بمـــا دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئتَ أتيتُ معاوية فسألته ما يريد ؟..

قال علي : ائته .

فأتاه الأشعث فقال له : لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟

قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه .. تبعثون رجلاً ترضون به ، ونبعث رجلاً نرضى به ، نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٦ .

قال الأشعث : هذا الحق .

وعاد إلى عليّ فأخبره .

فقال الناس : قد رضينا وقبلنا .

واختار أهل الشام عمرو بن العاص .

وقال الأشعث ومعه جماعة – ممن صاروا خوارج – : إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري .

فقال علي : قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن ، لا أرى أن أولي أبا موسى .

فقال الأشعث وزيد بن حصين ومِسعر بن فدكي : لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا مما وقعنا فيه .

قال علي : فإنه ليس بثقة ، قد فارقني وخذّل الناس عني ، ثم هرب مني حتى أمنته بعد شهر ، ولكن ابن عباس أوليه ذلك .

قال الأشعث ومَن معه : والله لا نبالي أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء .

فقال علي : قد أبيتم إلا أبا موسى ؟..

قالوا : نعم .

قال : فاصنعوا ما أردتم [1] .

وثيقة التحكيم وموقف الأشعث منها

.. وحضر عمرو بن العاص عند الإمام عليّ ليكتب الوثيقة بحضوره . فكتبوا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين » ..

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٢١ . والبداية والنهاية ج ٧ ص ٣٠١ .

فقال عمرو بن العاص : هو أميركم وأما أميرنا فلا .. اكتب اسمه واسم أبيه.

فقال الأحنف لعلي :

– لا تمحُ إمارة المؤمنين ، فاني أخاف إنْ محوتها أن لا ترجع إليك أبداً ، لا تمحُها وإنْ قتل الناس بعضهم بعضاً .

فأبى ذلك عليّ ..

ولكن الأشعث قال للإمام علي : امحُ هذا الاسم ، فمحي ، فقال علي :

« الله أكبر ، سُنّة بسنّة ، والله إني لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية فكتبت : محمد رسول الله » .

وقالوا : لستَ برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه ..

فقلت : لا أستطيع .

فقال : أرنيه ، فمحاه بيده ، ثم قال : إنك ستُدعى إلى مثلها فتجيب .

وكتب الكتاب (١) :

« هـذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .. قاضى عليّ على أهل الكوفة ومَن معهم ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومَن معهم .. أننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره ، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا ونُميت ما أمات ، فما وجد الحكمان في كتاب الله ، وهما : أبو موسى عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة والجامعة غير المفرّقة . وأخذ

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣١٩–٣٢٠ .

الحكمان من علي ومعـــاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى عبدالله بن قيس ، وعمرو بن العاص عهـد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإنْ أحبّا أن يؤخـّرا ذلك أخـّراه ، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام » [1].

وشهد الأشعث بن قيس وعبدالله بن فحل العجلي وحجر بن عدي الكندي على هذه الوثيقة وآخرون معهم .

ومن أصحاب معـاوية : أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة ، وزمل بن عمرو وآخرين ...

وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس ، ومرَّ على طائفـة من بني تميم فيهم عروة بن أدية ، فقرأه عليهم .

فقال عروة : تحكمون في أمر الله الرجال ؟.. لا حكم إلا لله .

ثم شدَّ بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة، واندفعت الدابة وصاح به أصحاب الأشعث ، فرجع وغضب للأشعث قومه ، وناس كثير من أهل اليمن .

فمشى إليه الأحنف بن قيس ومسعر بن فدكي وناس من بني تميم ، فاعتذروا فقبل اعتذارهم [2] .

ونتساءل : ماذا كان من أمر الحكمين ؟..

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٣٢٠ . والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٠٢-٣٠٣ .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٢١ .

لقد كان الأشعث من أوائل المشجعين لعملية التحكيم.. واختلف مع الإمام عليّ أولاً في مبدأ التحكيم، واختلف معه ثانياً في اختيار أبي موسى الأشعري.

فهل تحققت تفاؤلات الأشعث؟..

أم سار الأمر كما تنبأ به الإمام علي؟..

إننا لا نحكم على هؤلاء الرجال، ولا نستطيع أن ننــال من موازينهم، ولكننا فقط نعبر عن النتيجة التي وصل إليها أمر التحكيم.

ذكر اجتماع الحكمين..

اجتمع الحكمان وابتدأ الكلام عمرو بن العاص فقال:

– يا أبا موسى، ألست تعلم أن عثمان قُتل مظلوماً؟..

قال: أشهد.

قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟..

قال: بلى.

قال: فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت؟.. فإن خفت أن يقول الناس: ليست له سابقة، فقل وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم والمطالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير، وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه وقد صحبه وعرّض له بسلطان.

فقال أبو موسى:

– يا عمرو اتقِ الله، فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هــذا ليس على الشرف تولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي ابن أبي طالب.

وأما قولك : إن معـاوية ولي دم عثمان فولِّه هذا الأمر ، فلم أكن لأوليه وأدع المهاجرين الأولين .

وأما تعريضك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كله لَمَا وليته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله ، ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب - رحمه الله - .

قال له عمرو :

- فما يمنعك من ابني وأنت تعلم فضله وصلاحه ؟..

فقال : إن ابنك رجلُ صِدق ، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة !..

وقال : يا ابن العاص ، إن العرب قـد أسندت إليك أمرها بعدما تقارعوا بالسيوف ، فلا تردنهم في فتنة !..

فقال له عمرو : خبرني ما رأيك ؟..

قال : أرى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم مَن أحبوا .

فقال عمرو : الرأي ما رأيت ..

وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عمرو :

- يا أبا موسى ، أعلمهم أن رأينا قد اتفق .

فتكلم أبو موسى فقال :

- إنّ رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة .

فقال عمرو : صدَق وبَرّ .. تقدّم يا أبا موسى فتكلم .

فتقدم أبو موسى ، فقال له ابن عباس :

- ويحك ! والله إني لأظنه قد خدعك !.. وإن كنتما اتفقتما على أمر فقدّمه

فليتكلم به قبلك ، ثم تكلم بعـــده فإنه رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما ، فإذا قمتَ إليه خالفك .

ولكن أبا موسى لم يستمع لما قاله ابن عباس ، وتقدم للناس فقال :

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصلح لأمرها ، ولا ألمّ لشعثها من أمر قـد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعـــاوية .. فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم مَن رأيتموه أهلاً » .. ثم تنحى .

وأقبل عمرو بن العاص فقال :

« إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معـاوية ، فإنه وليُّ ابن عفان والمطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه »[(١)] .

.. هكذا تمّ أمر التحكيم .. فهل رضي الأشعث عن هذه النتيجة ؟..

لقد كان رسول الإمام عليّ إلى معاوية .

وكان أول مَن ألقى بسهم في معركة صفين .

وكان أيضاً من المتشبثين برأيهم في إجابة أتباع معاوية إلى حكم الله عنـــدما رفعوا المصاحف .

وكان أيضاً خلف اختيار أبي موسى الأشعري في تلك المهمة .

فماذا كان موقفه بعـــد هذه السلسلة المتلاحقة من الخداع التي قام بها بعض الأفراد لأغراض في نفوسهم ؟..

إننا ننزّه أصحاب رسول الله ﷺ من كل ما يشين ، وكل ما حدث في تلك الفتنة ..

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٣٢ . والبداية والنهاية ج ٧ ص ٣١٠ .

ولكنها حدثت وكما أخبر بها رسول الله ﷺ :

« ستكون فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي .. فكسّروا قِسيّكم وقطّعوا أوتاركم ، واضربوا بسيوفكم الحجارة »[1] .

ونقول : إن الأشعث لم يرتفع له صوت بعـــد ما حدث في التحكيم ، ولم تحدثنا كتب التاريخ ومصادره عن موقف الأشعث من ذلك ..

أتراه اعتزل في بيته ؟..

وهجر سيفه ورمحه ؟..

وعاش مع دينه وكتاب ربه .. أم كان له شأن آخر ؟..

نقول : الله أعلم بحقيقته وبما كان من أمره .

ومات – رحمه الله – سنة أربعين بعد مقتل عليّ – رضي‌الله عنه – بأربعين يوماً ، وصلى عليه الحسن بن علي – رضي الله عنهما – .

---

(١) رواه ابن ماجة في باب الفتن ٣٦ – حديث رقم ٣٩٦١ .

قال رسول الله ﷺ :

« مَن حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بهـا مال امرىء مسلم ، لقي الله وهو عليه غضبان »[1] .

فقال الأشعث بن قيس : فيّ والله نزلت ، كان بيني وبين رجـــل من اليهود أرض فجحدني ، فقدمته إلى النبي ﷺ فقال :

– ألك بينة ؟..

قلت : لا .

فقال لليهودي : أتحلف ؟..

فقلت : يا رسول الله ، إذن يحلف فيذهب بمالي، فأنزل الله عز وجل : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) .. الآية[2] .

وعن صالح بن عمر عن الأعمش ، عن شقيق قال : قال عبدالله قال رسول الله ﷺ : « مَن حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مالاً، لقي الله وهو عليه

---

(١) رواه البخاري عن عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧٧ .

غضبان » ، فأنزل الله تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) .. إلى آخر الآية .. فأتى الأشعث بن قيس فقال :

– ما يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟..

قلنا : كذا وكذا .

قال : لفيّ نزلت، خاصمت رجلاً إلى رسول الله ﷺ فقال : ألك بينة ؟..

قلت : لا .

قال : فيحلف .

قلت : إذاً يحلف . قال ﷺ : « مَن حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مالاً ، لقي الله وهو عليه غضبان » .

فأنزل الله تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) .

وعن سفيان ، عن منصور والأعمش ، عن أبي وائل ، قال : قال عبدالله : قال رسول الله ﷺ : « لا يحلف رجل على يمين صبر ، ليقتطع بها مالاً فاجراً ، إلا لقي الله وهو عليه غضبان » .

قال : فأنزل الله تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) .

قال : فجاء الأشعث ، وعبدالله يحدثهم، قال : فيّ نزلت وفي رجل خاصمته في بئر ، وقال النبي ﷺ :

– ألك بينة ؟..

قلت : لا .

قال : فليحلف لك .

قلت : إذاً يحلف .

قال : فنزلت : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) [1] .

---

(١) رواه البخاري جـ ٦ ص ٣٤ ، عن حجاج بن منهال ، عن أبي عوانة . ورواه مسلم جـ ١ ص ٨٥ عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع .

تذييـــل ...

مَن هؤلاء الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحضر قتالهم الأشعث بن قيس رضي الله عنه ؟..

إن أصحاب كتب الفرق يكادون يتفقون على أن أول الخارجين هو يزيد بن عاصم المحاذي ، كان مع علي بصفين فلما رأى اتفاق الفريقين على الحكمين، استوى على فرسه ، وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلاً ، وحمل على أصحاب علي وقتل منهم رجلاً ، ثم نادى بأعلى صوته :

« ألا إني قد خلعت علياً ومعاوية ، وبرئت من حكمها » ، ثم قاتل أصحاب علي حتى قتله قوم من همذان .

ثم تقدم علي رضي الله عنه وقال لهم :

ماذا نقمتم مني ؟..

فقالوا له : أول ما نقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم .

فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ؟..

فقال : إنمـا أبحت لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم .

والنساء والذرية لم يقاتلونا وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد ، لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة في سهمه ؟..

فخجل القوم من هذا ثم قالوا له :

« نقمنـــا عليك محو إمرة أمير المؤمنين على إسمك في الكتاب بينك وبين معاوية ، لما نازعك معاوية في ذلك » .

فقال : فعلت مثل ما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين قال له سهل بن عمرو : لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك.

فكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله ، وسهيل بن عمرو » وأخبرني رسول الله ﷺ أن لي منهم يوماً مثل ذلك ، فكانت قصتي مع الأبنـــاء قصة الرسول ﷺ مع الآباء .

فقالوا له : فلم قلت للحكين إن كنت أهلاً للخلافة فاثبتاني ، فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى ؟؟.

فقال : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية ، ولو قلت للحكين احكما لي بالخلافة لم يرضَ بذلك معاوية ، وقد دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى المباهـلة ، وقال لهم :

(تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) [1] .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

فأنصفهم بذلك عن نفسه، ولو قال : أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم ، لم يرضَ النصارى بذلك .

لذلك أنصفتُ معاوية من نفسي ، ولم أدرِ غدر عمرو بن العاص .

قالوا : فِلمَ حكّمت الحكمين في حق كان لك ؟..

فقال : وجدت رسول الله ﷺ قـد حكم سعد بن معاد في بني قريظة ، ولو شاء لم يفعل ، وأقمت أنا أيضاً حكماً لكن حكم رسول الله ﷺ حكم بالعدل ، وحكمي خُدع حتى كان من الأمر ما كان .

فهل عندكم شيء سوى هذا ؟..

فسكت القوم ولكن لا عن رضى بل قرر بعضهم قتال علي رضي الله عنه ، وبرز إليه حرقوص بن زهير أحد الخوارج وقال :

« يا ابن أبي طالب والله لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة » .

فقال له علي بل مثلكم كما قال تعالى :

(هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهمْ يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) [١] .

منهم أنتم ورب الكعبة .. ثم قاتلهم قتالاً مريراً .. فهل انتهى الخوارج عند هذا الحد ؟..

إن بقية الخوارج لا زالت تعيش بين أبناء الأمـة الإسلامية ، تفرّق جمعهم وتشتت وحدتهم .

إن الذي يفرق أمر الأمة وهي جمع ، فهو من الخوارج ؟..

والذي يكفر أبناءها ويستبيح دماءها فهو من الخوارج ؟..

---

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٤ .

ولقد أخبر الرسول ﷺ بهم ودل على الدور الذي يقومون به في تاريخ الأمة الإسلامية ، من ذلك ما رواه سعيد رضي الله عنه قال :

« بينـا رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله » .

فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟..

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أتأذن لي فيه فأضرب عنقه ؟..

فقال : دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .

إن أحفاد هذا الرجل لم يزل لهم دور في الأمة الإسلامية ، وهم غلاظ الأكباد والقلوب .

يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم .

فمَن علي بن أبي طالب الجديد الذي يقضي على خوارج الأمة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري ، كما قضى عليهم فارس الفرسان وبطل الشجعان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في القرن الأول ؟..

إننا في حاجة ماسة إلى هذا الرجل ..

فمتى يظهر للوجود ؟..

إننا في انتظاره ، وعلى الله قصد السبيل .

الآيــة السّابعــة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ
غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً
أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا
مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

صدق الله العظيم

سورة النساء : آية رقم ١١٠ - ١١٢

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال كثير من رجال التفسير والحديث : سبب نزول هـــذه الآيات ما قاله قتادة بن النعمان لرسول الله ﷺ بشأن سرقة السلاح والطعام من عمه رفاعة .

راجع الترمذي في التفسير باب ومن سورة النساء رقم ٣٠٣٩ .

وراجع الطبري رقم ١٠٤١١ .

وراجع الحاكم والمستدرك ٤ / ٣٨٥ .

وراجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٢٧٧ .

وراجع تفسير الدر المنثور للسيوطي جـ ٢ ص ٧٦ .

فمن قتادة بن النعمان ؟..

قتادة بن النعمان

رضي الله عنه

قتـــادة بن النعمان

رضي الله عنه

لا يعرف التاريخ شيئاً عن طفولته وشبابه ..

ولا يحدثنا في قليل أو كثير عن أيامه الأولى قبل الإسلام ..

ولكنه يقف مبهوراً ليسجل عن قتادة أول حادث له عندما انضمّ إلى القافلة الميمونة المتجهة إلى مكة ..

لقد كانت هذه القافلة تضمُّ سبعين رجلاً ..

تركوا أموالهم وزروعهم ، وزوجاتهم وأبناءهم ، في رحلة قصيرة ليلتقوا بمحمد بن عبدالله الرسول الأمين .

وكانت معهم في تلك الرحلة نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء ابنة عمرو بن عدي ..

وسارت بهم المطيّ حتى ألقت رحلها بمكة ..

والتقى بهم رسول الله ﷺ ..

وأخذ قتادة يستمع إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ وهو يقول:

« يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزّ من قومه ، ومَنعة في بلده » .

ثم قال :

« وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه ومانعوه مما خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك .. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدَعوه فإنه في عزّ ومَنعة من قومه وبلده » .

يقول قتادة : فقلنا للعباس : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخُذْ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ، ثم قال :

« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

يقول قتادة : فأوشكت أن أقوم فسبقني إلى ذلك البراء بن معرور ، فأخذ بيده عليه السلام ثم قال :

« نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك ما نمنع منه نساءنا فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ، وأهل السلاح ، ورثناها كابراً عن كابر » .

فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التّيهان فقال :

« يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود)، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا ؟.. »

يقول قتادة : فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال :

« بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب مَن حاربتم وأسالم مَن سالمتم » .

وتمّت البيعة التي باركها الله وحضرتها ملائكته الأبرار .

واتجهت القافلة إلى المدينة وعاد قتادة معها ، عاد وهو إنسان آخر لا يعرف الإنسان الأول .

.. لقـــد حرص على تطهير نفسه وقلبه من كل الأمراض التي كانت تشيعها الجاهلية من الحقد والغل والحسد .

وحرص على تطهير ماله ورزقه .. فلا يقبل إلا حلالاً ولا يأكل إلا طيب ، وتساوت عنده البشرية ، فكلهم لآدم وآدم من تراب ..

ومن هنا فلن يتفاضل الناس بالحسب والنسب .

ولن يستعلي بعضهم على بعض بالمال والجاه .

وإنما هناك شيء واحد يُميّز الناس بعضهم عن بعض ويفضل بعضهم على بعض ، هو التقوى والعمل الصالح .

وأسلمت زوجته وأولاده ، وأخذ يدعو إلى هذا الدين الجديد ويبشر بقرب وصول الرسول الكريم إلى يثرب .

وأخذت الأيام تمر بطيئة مملة ، أيام انتظار الرسول ﷺ حتى أعلن البشير وصول الرسول ﷺ ، فخرج ومعه أهله وأحبابه لهذا اللقاء .

.. وشارك المهاجرين والأنصار بناء مسجد الرسول ﷺ ، هذا المسجد الذي تحول فيما بعد إلى قلعة لتخريج الرجال وصناعة الأبطال ، ورسم شؤون الحياة .

ففي المسجد كانت تقام الصلوات ، ويتفقه الناس في أمور دينهم .

وفي المسجد تعلم قتادة فقه الشريعة وأصول الدين .

وفي المسجد كانت تجيش الجيوش ، وترسم الخطط ، للمعارك التي كانت تقام بين المسلمين وعصابة الكفر .

ومن تاريخ الهجرة ، ووصول الرسول ﷺ أصبح قتادة جندياً من جنود الإسلام .

وفارساً لا يشق له غبار .

ومؤمناً يطلب الشهادة ويتمناها لنصرة الدين وإعلاء كلمة التوحيد. وجاءت غزوة بدر أول لقاء بين جند الرحمن وأتباع الشيطان ، وقام قتادة في هـذه الغزوة بما يفرضه الإيمان على الجندي المسلم،وانتصر المسلمون وهزم الكفر وأهله.

ثم كانت غزوة أحد .

تلك الغزوة التي خالف فيها بعض المسلمين أمر القائد ، وأغرتهم الدنيا عندما شاهدوا هزيمة الكفار وانتصار المسلمين،فتركوا أماكنهم في أعلى الجبل إحرازاً للغنائم وجمعاً للحطام التي تركته قريش .

واهتبل المشركون هـذه الفعلة ، فغاروا على المسلمين فهزموهم عن أماكنهم وكروا خلفهم يقتلونهم ، حتى أغراهم ذلك بالتقدم لقتل الرسول ﷺ .

وجاء أبي بن خلف وهو يقول :

« أين محمد ؟.. لا نجوت إن نجا » .

فقال القوم : يارسول الله أيعطف عليه رجل منا .

فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه .. فمات عدو الله وهو قافل إلى مكة .

وتتابع المشركون ، وحاط المسلمون بالرسول ﷺ ، وترس دون رسول الله أبو دجانة بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل .

ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ .

قال سعد : فقد رأيته يناولني النبل وهو يقول :

« ارم فداك أبي وأمي » .

حتى إنه ليناولني السهم ما له نصل فيقول : ارم به .

وتناول قتادة سيف الرسول ﷺ وأخذ يجندل به عصابة الشرك والكفر ، حتى أبعدهم عن رسول الله ﷺ ، وتناوشته السهام ، وشرعت نحوه السيوف، وامتلأ جسده بالجراح ، ولكن كل هذه الأشياء لا تساوي شيئاً، ما دام في ذلك العمل فداء لرسول الله ﷺ .

وما كادت تنتهي المعركة ، وهرب فلول الكفر ، حتى أصيبت عين قتادة فسالت حدقته على وجنته .

فاقترب من رسول الله ﷺ وقال :

« يا رسول الله إن عندي امرأة أحبها ، وإن هي رأت عيني خشيت أن تقذرني .

فدفع الرسول حدقته بيده ، حتى وضعها موضعها،ثم غمزها براحته وقال:

« اللهم اكسبها جمالاً » .

فعادت أحسن عينيه وأحدّها نظراً .

وذكر الأصمعي عن أبي معشر المدني قال :

وفـد أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بديوان أهل المدينة إلى عمرو بن عبد العزيز رجل من ولد قتادة بن النعمان .

فلما قدم عليه قال له : فمن الرجل ؟..

فقال :

أنا ابن الذي سالت على الخدّ عينه فردّت بكف المصطفى أحسن الردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسْن ما عين ويا حسن ما ردّ

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

تلك المكارم لا قعبـان من لبن شيباً بماء فعادت بعـد أبوالا

وكان قتادة دائماً على مقربة من الرسول ﷺ لا يتركه في سفر ولا حضر .

ومن حديث أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة لصلاة العشاء . .

وهاجت الظلمة من السماء ، وبرقت برقة ، فرأى رسول الله ﷺ قتـادة بن النعمان . .

قال : قتادة .

قال : نعم يا رسول الله ، علمت أن شاهد الصلاة الليـلة قليل ، فأحببت أن أشهدها .

فقال له : إذا انصرفت فائتني .

فلما انصرف أعطاه عرجوناً وقال له :

« خذها فسيضيء أمامك عشراً وخلفك عشراً » [(١)] .

إنه نور الإيمان ، نور التقوى الذي يهبه الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده قال تعالى :

(ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) [(٢)] .

وقال أيضاً :

(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) [(٣)] .

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٢٧٦ .
(٢) سورة النور آية رقم ٤٠ .
(٣) سورة الزمر آية رقم ٢٢ .

ومن شرح الله لصدر عبده المؤمن أن يوفقه إلى أداء ما افترضه عليه من العبادات وفي مقدمة ذلك الصلاة .

يقول تعالى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) [1] .

ويقول الرسول ﷺ :

« صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة .. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفعت له بها درجة ، وحُطّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلاّه .

اللهم صلّ عليه .

اللهم ارحمه .

وفي رواية : اللهم اغفرْ له ، اللهم تُبْ عليه ، ما لم يؤذِ فيه ، ما لم يحدث فيه .. » [2] .

وقتادة كان يفعل ذلك ، كان يحرص على صلاة الجماعة ، وكان يسرع في التبكير إلى المسجد ، وكان دائماً يتلو القرآن ويتدبر آياته ويداوم على قراءة سورة الإخلاص لأنها تعدل ثلث القرآن كما يقول الرسول ﷺ ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

« إن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد) يرددها ..

فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٣ .

(٢) الحديث رواه البخاري في الجماعة ٢ / ١١٣ باب فضل صلاة الجماعة وفي المساجد . ورواه مسلم رقم ١٤٩ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٩ باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة.

« والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

قال البخاري : وزاد أبو معمر بسنده عن أبي سعيد قال : أخبرني أخي قتادة بن النعمان ، عن النبي ﷺ .

وفي رواية قال : قال النبي لأصحابه :

« أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليله ؟.. »

فشقَّ ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟..

فقال : « الله أحد الله الصمد ثلث القرآن » (١) .

ومن هذه السورة التي كانت لا تغيب عن ذاكرة قتادة بن النعمان ينبثق منهج كامل للحياة ..

منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لنا عليه إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته ..

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة ، في السرّاء والضرّاء ، في النعماء والبأساء .. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً ؟.. » (٢)

وسارت حياة النعمان نوراً على نور ، فهو يستضيء بكتاب ربه وبهدى نبيه ﷺ ..

وعندما تحرك عشرة آلاف مقاتل بقيادة الرسول ﷺ لفتح مكة ، كان قتادة يحمل راية بني ظفر ، وكان يتمنى أن تُطوى الأرض تحت حوافر خيلهم حتى يطهر بيت الله الحرام ، من الأصنام والأوثان التي تشيع البهتان والإضلال .

---

(١) أخرجه البخاري ٩ / ٥٣ في فضائل القرآن، والموطأ ١ / ٢٠٨ في القرآن، وأبو داود ١٤٦١ في الصلاة باب في سورة الصمد ، والنسائي ٢ / ١٧١ في الافتتاح .

(٢) في ظلال القرآن جـ ٨ تفسير سورة الإخلاص .

وتمّ النصر الأكبر وطهرت الكعبة مما فيها . وشاهد قتادة رسول الله ﷺ وهو واقف بباب الكعبة قائلاً :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم ؟..

قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال عليه السلام : إذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) .

وعندما وصلت هذه الكلمات إلى أذن قتادة أخذ يردّد بينه وبين نفسه قول الله تعالى : (وإنك لعلى خُلق عظيم) (٢) .

لم يعاقب النبي ﷺ هؤلاء الذين أخرجوه من بلده ..

ولم يفكر لحظة في إيقاع الأذى بهم ، وهم طالما آذوه ونالوا منه وتقوّلوا عليه الأقاويل .

فهو الرحمة المهداة الذي خفف عن المكروبين كربانهم .

وهو العادل الأمين الذي ساوى بين الموسرين والمحتاجين .

وهذا ما جعل قتادة وغيره من الصحابة يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، وفداءً للرسول الكريم ..

ثم كانت أحداث وأحداث ..

وتمّ الدين ، وبُلّغت الرسالة ، وبَلغ الكتاب أجله ، وتوفي رسول الله ﷺ ..

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) سورة القلم آية رقم ٣ .

وتبعه رفيقه وصاحبه في الغار أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه .

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في سنة ثلاث وعشرين هجرية ، كانت وفاة قتادة بن النعمان رضي الله عنه ، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. ونزل في قبره أبو سعيد الخدري ، وهو أخوه لأمه رضي الله عنهما .

نسأل الله العليّ القـــدير ، أن يسكنه فسيح جناته ، وأن يجعله مع الأبرار والشهداء والصالحين ، جزاءً بما قدّم من خير للإسلام والمسلمين .

أسباب نزول الآيات

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق : بشر ، وبشير ، ومبشر ، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي ﷺ ثم ينحله[1] بعض العرب ، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا .

فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر ، قالوا :

« والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث » .

أو كما قال الرجل .

وقالوا : ابن الأبيرق قالها .

قال : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير .

وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة[2] من الدرمك[3] ، ابتاع

---

(١) النحلة : الهبة والعطية .

(٢) ضافطة : التجار الذين يحضرون الدقيق والزيت .

(٣) الدرمك : الدقيق .

الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملا من الدرمك، فجعله في مشربة[1] له ، وفي المشربة سلاح : درع وسيف ، فعدى[2] عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح .

فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال :

« يا ابن أخي ، إنه عدي علينا في ليلتنا هـــذه فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا » .

قال : فتحسسنا في الدار وسألنا .

فقيل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم .

قال : وكان بنو أبيرق قالوا – ونحن نسأل في الدار – والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ، رجل منا له صلاح وإسلام .

فلما سمع لبيدُ اخترط سيفه ، وقال : أنا أسرق ؟..

فوالله ليخالطنكم هذا السيف ، أو لنبين هذه السرقة .

قالوا : إليك عنا أيها الرجل ، فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار ، حتى لم نشك أنهم أصحابها .

فقالى لي عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ؟..

قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت :

« إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة

---

(١) المشربة : الغرفة .

(٢) فعدي عليه : سرق ماله .

له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فإما الطعام فلا حاجة لنا فيه » .

فقال النبي ﷺ : سآمر في ذلك .

فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسيد بن عروة فكلموه في ذلك، واجتمع في ذلك أناس من أهل الدار .

فقالوا : يا رسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمّه عمدا إلى أهل بيت منا .. أهل إسلام وصلاح ، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت .

قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة من غير ثبت ولا بينة ؟..

قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك .

فأتاني عمي رفاعة فقال :

« يا ابن أخي ما صنعت » ؟..

فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ ، فقال : الله المستعان .

فلم نلبث أن نزل القرآن :

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً « بني أبيرق » واستغفر الله « مما قلت لقتادة » إن الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى

من القول وكان الله بما يعملون محيطاً) [1] .. الخ .

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة .

قال قتادة : ما أتيت عمي بالسلاح ، وكان شيخاً عَسًا أو عشا [2] – الشك من أبي عيسى في الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً .

فلما أتيته قال لي : يا ابن أخي ، هو في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

فلما نزل القرآن لحق بُشير بالمشركين ، فنزل على سلافة بنت سعد [3] ابن سمية .

فأنزل الله تعالى :

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّنَ له الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين نولِّهِ مَا تولَّى ونُصْلِهِ جهنم وساءت مَصيراً ، إن الله لا يَغفرُ أن يُشركَ بهِ ، ويغفر ما دونَ ذلك لمن يشاء ومَن يشركْ بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً) [1] .

فلما نزل على سلافة ، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر .

فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به في الأبطح ثم قالت :

---

(١) سورة النساء من ١٠٤ – ١٠٨ .

(٢) عسا بالسين غير المعجمة ، أي كبر وأسن وبالمعجمة قل بصره وضعف .

(٣) سلافة : زوج طلحة بن أبي طلحة ، وهي أم مسافع والجلاس وكلاب بنو طلحة قتلوا يوم أحد هم وأبوهم قتلهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه .

(٤) سورة النساء آية رقم ١١٥ ، ١١٦ .

« أهديتَ إليّ شعر حسان [1] ما كنت تأتيني بخير » [2] .

---

(١) شعر حسان يقول في أوله :

وما سارق الدرعين إن كنت ذاكراً ... بذي كرم من الرجـــال أوادعه
فقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ... ينازعها جـــلد إستها وتنازعه

(٢) الحديث رواه الترمذي رقم ٣٠٣٩ في التفسير ، باب ومن سورة النساء ، وأخرجه الطبري رقم ١٠٤١١ ، والحاكم في المستدرك ٤ / ٣٨٥ وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

تذييل ...

نزل القرآن الكريم ، لتربية الأمة الإسلامية ، تربية توافق الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

نزل القرآن ليخاطب الأمة الوسط بما يجب أن تكون عليه من مُثل وأخلاق تتفق ومسؤولية الإنسان في الأرض وقيامه بدور الخلافة عن ربه .

والقارىء لآيات القرآن الكريم .. يلحظ أنه منهج حياة للفرد المسلم والمجتمع المسلم والأمة المسلمة ..

منهج حياة للإنسان في حياته وبعد مماته .

فهو ينظم سلوكه في طفولته ، وينظم حياته في شبابه ، وينظم حياته في كل دور من أدوار حياته .

وهو دائماً يقدم الأصلح لحياته ولِمَن يحيطون به .. فالأسرة لبنـة أولى في بناء المجتمع .. يخصص لكلٍّ دوره في الحياة .

فالرجال للضرب في فجاج الأرض بحثاً عن الرزق وتعمير الكون والحياة .. ليس هذا فحسب ، ولكن هو دائماً الأقوى والمُدافع عن هذه الأسرة الصغيرة أمام تقلـّبات الطبيعة وضربات الحياة .

فهو المسؤول عن الطعام والشراب ..

وهو القائم بمتطلبات الأمن والأمان ..

وهو في النهاية المُدافع عن شرف القبيلة ، وعن حرمة الوطن ، وعن إقامة العدل بين الناس جميعاً .

والمرأة : لها وظيفتها التي لا تقلُّ في التبعة والمسؤولية عما يقوم به الرجال ، بل هي أخطر مسؤولية وأعظم تبعية مما يقوم به الرجال .

المرأة : حاضنة الطفولة ، وصانعة الرجولة ، والمسؤولة عن البيت السعيد الذي يضمُّ الأطفال الزغب .

والإسلام يقـــدم لهذه الأسرة كل الضمانات الكافية ، لقيامها بواجباتها على الوجه الأكمل .

إن القرآن الكريم .. يحرص دائماً على إقـامة الأمن في قلب المسلم .. الأمن أمام الحياة ، والأمن أمام الرزق ، والأمن أمام الأجل ..

فالمحيي والمميت هو الله سبحانه وتعالى .

والآجال مكتوبة محدّدة لا تتقدم ولا تتأخر .

قال تعالى : (لكل أجَلٍ كتاب) [١] .

وقال تعالى : (إذا جاء أجَلُهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)[٢].

وكل شيء وُضع بميزان وحكمة .. قال تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [٣] .

والتقوى والفلاح عاملان من عوامل تفريج الكربات وزيادة الرزق .. قال تعالى : (ومَن يَتّقِ الله يجعلْ له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومَن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) [٤] .

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٣٨ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٤٩ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٥١ .

(٤) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .

الآيـة الثامنـة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

صدق الله العظيم

سورة النور : آية رقم ٣ – ٢

أقوال العلماء في نزول هذه الآيات

قال بعض رجال التفسير والسِّيَر : نزلت هذه الآيات في مرثد بن أبي مرثد الغنوي .

قال ذلك صاحب كتاب : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، جـ ٣ ص ١٣٨٥ وص ١٣٨٦ .

وذكره الإمام الترمذي رقم ٣١٧٦ في التفسير ، باب ومن سورة النور .

وذكره أبو داود رقم ٢٠٥١ في النكاح ، باب قوله تعالى : (الزاني لا ينكح إلا زانية) .

وذكره النسائي ٦ / ٦٦ في النكاح ، باب تزويج الزانية .

فمَن مرثد بن أبي مرثد هذا ؟..

مرثد بن أبي مرثد

رضي الله عنه

مرثد بن أبي مرثد

رضي الله عنه

صحابي جليل وابن صحابي .

نشأ قريباً من الحرم .. واختلط بكثير من الحجيج الذين كانوا يفدون إلى الكعبة ، فعرف الكثير من أحوال الأمم والشعوب .

كان والده حليفاً لحمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ، فحالفه هو أيضاً ، وقام برحلة الشتاء والصيف متاجراً في مال حليفه .

ولما جاء الإسلام انضمّ مع والده إلى سبيل الرشاد .

ونالهما من صنوف العـذاب ألوانٌ ، ولكن ذلك لم يمنعهما من التمسك بدينهما والدعوة إليه ، والاستشهاد في سبيله إن اقتضى الأمر ذلك .

وعندما علما بهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب ، عزما أمرهما على اللحاق به ، والانضمام إلى جيش الإسلام الذي يُعَدُّ هناك .

وتحت جنح الظلام ، وقريش تغطُّ في نوم عميق ، أسرعت بهما المطيّ إلى مدينة الرسول ﷺ .

واستقبلهما المسلمون استقبالاً طيباً ، ورحّب بهما رسول الله ﷺ وآخى بين والده وبين عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

وأما هو فآخى الرسول بينه وبين أوس بن الصامت .

وأوس هذا الذي ظاهر من زوجته عندما قال لها : أنتِ عليّ كظهر أمي .

وفيه وفي زوجته خولة بنت ثعلبة نزل قول الله تعالى :

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) [1] .

وفي مدينة الرسول ﷺ تعلم مرثد فنون الحرب والقتال ، وأتقن الفدائية بكل صورها ، وكانت الدعوة في بداية أمرها تحتاج إلى هذا النوع من الرجال الأبطال .

وكانت قريش تحبس بعض المسلمين في دورها وتحول بينهم وبين اللحاق بالرسول ﷺ .

وكان مرثد يقوم بمهمة فكاك الأسرى من بيوت قريش ويحملهم إلى مدينة الرسول ﷺ .

وتكررت رحلات مرثد إلى مكة ، يعود في نهاية الرحلة بمجموعة من المسلمين الذين كانت تحبسهم قريش .

وفي إحدى الليالي واعدَ أحد الأسرى أن يأتي إليه ليفكَّ قيده ويحمله إلى المدينة .. يقول مرثد :

– وكانت ليلة قمراء ، فخرجت حتى انتهيت إلى حائط من حيطان مكة ، فجاءت امرأة تسمى عناق ، كانت له صاحبة في الجاهلية .

فقالت : مرثد ؟

قلت : مرثد .

قالت : مرحباً وأهلاً ، هلمّ فبِتْ عندنا الليلة .

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ١ .

قلت : يا عناق ، إن الله حرّم هذا .

فما كان منها إلا أن رفعت صوتها قائلة : يا أهل الخباء ، هـــذا الذي يحمل الأسرى .

فاتبعني ثمانية رجال ، وسلكت طريق الجبل حتى انتهيت إلى غار فدخلته، وجاءوا حتى قاموا على رأسي، وأعماهم الله عني، ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الأذخر ففككت عنه قيـده ، وسرنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ .

ولم يستطع مرثد أن يذهب إلى مكة بعـــد ذلك ، لأن قريش وضعت له الكمائن ورصدت له العيون .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بدّ من تدبير أمر آخر ينال من قريش وعصابة الكفر . .

وجاءت غزوة بدر ، وكان مرثد يركب فرساً يقال لها السبل ، وأبلى في هذه الغزوة بلاءً حسناً حتى أراد الله سبحانه وتعـالى وانتصر المسلمون انتصار الأبطال .

ثم كانت غزوة أحد التي كان من أمرها ما كان . . .

وفي العـام الثالث للهجرة ، وفدَ على رسول الله ﷺ رهطٌ من قبيلة تسمى عضل والقارة ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابعثْ معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

واستجاب الرسول ﷺ لمطلبهم . .

واختار لهم ستة من أصحابه ، وهم :

مرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

وخالد بن البكير الليثي حليف بني عدي بن كعب .

وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح .

وخُبَيْب بن عدي أخو بني جحمي .

وزيد بن الدَّثِنَّة بن معاوية أخو بني بياضة بن عمرو .

وعبدالله بن طارق حليف بني ظفر .

إنهم من خيرة الرجـــال والأبطال ، وكلٌ منهم له تاريخ طيب في الإسلام والدعوة إليه .. إنهم الرجال الذين جمعوا بين فقه الشريعـــة وقوة الشكيمة ، وفنون القتال .

وأمّر الرسول ﷺ عليهم مرثد بن أبي مرثد .

وخرجت القافلة على بركة الله ، تسرع الخطى نحو الغاية التي حُدّدت لها .. حتي إذا كانوا على الرجيع (ماء لقبيلة هذيل بالقرب من الحجاز) استصرخوا عليهم قبيلة هذيل ، فخرجت هذه القبيلة وأحاطتهم بالسيوف ، فأخذ الصحابة سيوفهم ليقاتلوا القوم .

فقالوا لهم : إنا والله مـــا نريد قتالكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم .

ولكن أيكون للغادر عهد ؟..

أيكون للمشرك ميثاق ؟..

إن هؤلاء خانوا الأمانة ، وخدعوا رسول الله ﷺ وجمـاعة المسلمين ، فلن يكون لهم عهد ولا ميثاق .

فاتفق مرثد ، وعاصم ، وخالد بن البكير ، على مقـــاتلة القوم ، وقالوا : لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً .

ووقف عاصم بن ثابت على ربوة عالية شاهراً سيفه وهو يقول :

ما علّتي وأنا جلد نابل ... والقوس فيها وتر عُنَابِل
تزل عن صفحتها المعابل ... والموت حق والحياة باطل

وكل مـا حم الإله نازل بالمرءِ والمرءُ إليــه آيل
إن لم أقاتلكم فأمي هابل

ثم اندفعوا ثلاثتهم لقتال القوم فقاتلوهم فقتلوا جميعاً .

قتل مرثد بن أبي مرثد .

وقتل خالد بن البكير .

وقتل عاصم بن ثابت .

فأرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه لسلافة بنت سعد، وكان عاصم قتل ابنيها يوم أحد .

فنذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في رأسه الخمر .

ولكن هل في استطاعة هذيل أن تأخذ رأس عاصم ؟..

لقد كان عاصم قبل موته ، قـد أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً تنجساً ، فلا بد من أن الله يحفظه ويحول بينه وبين المشركين .

فما كاد يسقط شهيداً حتى أحاطت به مجموعة من النحل، تحارب عنه حرب المستميت القادر .

وكل من حاول الاقتراب منه غرزت فيه إبرها .

وعجز الأشرار عن الاقتراب من جثة عاصم .

وقالوا : لنترك الجثة الآن ، فإذا جاء الليل ذهبت النحل إلى بيوتها وأخذنا ما نبتغيه منه .

وما كاد يأتي المساء ، حتى أرسل الله سبحانه وتعالى سيلاً عارماً حمل عاصم إلى حيث أراد الله سبحانه وتعالى .

إنهم جنود الله الذين يقفون مع عباده .

يقفون معهم بالنصر والتأييد .

ويقفون معهم بالرعاية والحفظ .

وصدق الله العظيم : (ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما)(١) .

وقوله أيضاً : (وإن جندنا لهم الغالبون) (٢) .

وأما زيد بن الدثنة .

وخبيب بن عدي .

وعبد الله بن طارق .

فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها .

حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل الذي يربط به ، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه .

وأما خُبَيْب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة ، وتزاحمت قريش لشراء الأسيرين.

أما خبيب فاشتراه حجير بن أبي إهاب ليقتله بأبيه الذي قتل في غزوة بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله ، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته .

قالت : فغفلت عن صبي لي .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٧ .
(٢) سورة الصافات آية رقم ١٧٣ .

فدرج إليه حتى آتاه فوضعه على فخذه ، فلما رأته فزعت منه فزعة عرف ذلك مني ، وفي يده الموسى .

فقال : أتخشين أن أقتله ؟.. ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله .

وكانت تقول : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قِطْفِ عنب وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد .

وما كان إلا رزق رزقه الله خبيباً .

قتـــل خبيب

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال :

« دعوني أصلي ركعتين » ، فلما انصرف من صلاته ، تقدم إليهم وقال :

لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت .

فكان أول من سن الركعتين عند القتل .

ثم قال : « اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبقي منهم أحداً » .

واقترب منهم وقال :

فلست أبالي حين أقتـــل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبـــارك على أوصال شِلو ممزع [1]

---

(١) الشلو : العضو من أعضاء الانسان ، الممزع : المفرق .

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله (٢) ..

.. لقد كان في مقدور خبيب أن يفر من القتل،وكان في مقدوره أن يحتفظ بالطفل لديه حتى يطلقوا سراحه ، وكان في مقدوره أن يشفي غيظه بقتل هذا الطفل وهو مقتول ولكنه لم يفعل ، لأن المسلم الذي تربى في مدرسة القرآن يحتفظ دائماً بأخلاقه ودينه .

---

(٢) رواه البخاري ٧ / ٢٩١ - ٢٩٥ في المغازي ، وأبو داود رقم ٢٦٦٠ ، ٢٦٦١ في الجهاد والبخاري أيضاً ٧ / ٢٩٦ باب غزوة الرجيع .

أسباب نزول الآيات

عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهما قال :

كان رجل يقال له : مرثد بن أبي مرثد ، وكان رجلاً يحمل الأسراء من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، قال : وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها : عناق ، وكانت صديقة له ، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحمله قال :

« فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة ، في ليلة مقمرة ، قال: فجاءت عناق، فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط ، فلما انتهت إليّ عرفتني، فقالت :

« مرثد ..؟ »

فقلت : مرثد .

فقالت : مرحباً وأهلاً ، هلمّ فبِت عندنا .

قال : قلت : يا عناق حرم الله الزنا .

قالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراءكم .

قال : فتبعني ثمانية ، وسلكت الخندمة (جبل بمكة) فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا ، فظل بولهم على رأسي وعماهم الله عني ، قال : ثم رجعوا .

ورجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلاً ثقيلاً ، حتى انتهيت إلى الإذخر ، (بعض النبات الذي ينبت في مكة) ففككت عنه أكبله ، فجعلت أحمله ويعييني حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت :

« يا رسول الله ، أنكح عناق ؟.. »

فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد شيئاً حتى نزلت :

(الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) .

فقال رسول الله ﷺ يا مرثد: (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) فلا تنكحها .

هذه رواية الترمذي ، وأخرجه النسائي بنحوه ، ورواية الترمذي أتم .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى يقال له نسطاس إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتل .

واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب، فقال له حين قدم ليقتل:

« أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ..؟ »

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي .

يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

ثم قتله نسطاس يرحمه الله [١] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ .

قال ابن عباس :

« لما أصيبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم قال رجال من المنافقين : يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم » ، فأنزل الله تعالى في ذلك :

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)[1] .

ونزل في أصحاب السرية قوله تعالى :

(ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد)[2].
ومن حديث مرثد عن النبي ﷺ أنه قال :

« إن سركم أن تقبل صلاتكم فليؤمكم خياركم ، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم »[3]

وكانت سرية الرجيع في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مهاجَر رسول الله ﷺ .

رحم الله مرثد بن أبي مرثد وأسكنه وصحبه فسيح جناته إنه سميع الدعاء وعلى الله قصد السبيل .

واختصره أبو داود قال : إن مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بغي يقال لها : عناق ، وكانت صديقته قال :
فجئت النبي ﷺ ، فقلت يا رسول الله ، أنكح عناق ؟..

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٠٧ .
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٣ ص ١٣٨٤ .

قال : فسكت فنزلت (الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) فدعـــاني فقرأها وقال : لا تنكحها [1] .

وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح ، فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوجها ، فأنزل الله:

(الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) .

وأخرج ابن سعيد بن منصور عن مجاهد قال :

« لما حرم الله الزنى كان زوان عندهن جمال فقال الناس: ليطلقن فليتزوجن فنزلت » [2] .

---

(١) رواه الترمذي رقم ٣١٧٦ في التفسير، باب ومن سورة النور، وأبو داود رقم ٢٠٥١ في النكاح ، باب قوله تعالى : (الزاني لا ينكح إلا زانية) والنسائي ٦ / ٦٦ في النكاح باب تزويج الزانية ، واسناده حسن ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هـذا الوجه وصححه الحاكم ٢ / ٣٩٦ .

(٢) تفسير الجلالين على هامش المصحف أول سورة النور ص ٤٦٢ بتصرف .

تذييل ...

.. فرض الله على الأمة الإسلامية الجهاد ، والجهاد أحد المعالم الأساسية في شريعة الإسلام .. والأمة التي لا تجعل الجهاد سلوكاً لأبنائها وفرضاً عليهم ، لا تستطيع العيش في هذه المجتمعات التي كثيراً ما تلغي صوت العقل وتبطل شرع الله ، وتقيم ألوية الشيطان .

« والإسلام دين القوة ، شارعه هو الجبار ذو القوّة المتين ، ومبلّغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين ، وكتابه هو القرآن الذي تحدّى كل إنسان وأعجزه ، ولسانه هو العربي الذي أخرس كل لسان وأبان ...

فمن لم يكن قوي النفس ..

قويّ البأس ..

قويّ العزيمة ..

قويّ الإيمان ..

قويّ العقيدة ..

كان مسلماً من غير إسلام ، ومؤمناً من غير إيمان ، وإنساناً بغير ضمير » .

والأمة الإسلامية استطاعت في فترة وجيزة أن تعلن كلمة التوحيد في رقعة فسيحة من المعمورة ..

عندما كان الجهاد طريقها ، والاستشهاد في العقيدة سبيلها .

يقول خالد بن الوليد في أخريات حياته :

« ما ليلة يُهدى إليّ فيها عروس ، أنا لها مُحِبّ .. أو أُبشَّر فيها بغلام ، أحَبّ إليّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدوّ .. فعليكم بالجهاد » [1] .

ومن هنا وصفهم الله تعالى بقوله :

(كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون) [2] .

إنهم في رباط دائم وصحوة مستمرة .. في رباط مع ربهم لا يغفلون عنه لحظة ، ولا ينشغلون عن أوامره خطرة .. وفي صحوة مستمرة مع أنفسهم ، في صحوة ضد أعداء الدين ، أعداء الوطن ، سمعوا نداء ربهم :

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ، يغفرْ لكم ذنوبكم ويُدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومساكن طيبة في جنات عدنٍ ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبَشّر المؤمنين) [3] .

سمعوا ذلك النداء فلبُّوا صوته ، وآمنوا أن هذا الطريق هو طريق النصر وتلك هي شروطه :

---

(١) عبقرية خالد ، للاستاذ عباس محمود العقاد .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ١٧ .

(٣) سورة الصف آية رقم ١٠ .

« إيمان عميق بالله ورسوله .

وجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس » .

والإيمان العميق لن يأتي إلا عن طريق العقيدة ، العقيدة التي حملها أتباع محمد ﷺ ، فانفتحت أمامهم الدنيا وانداحوا في أربعة أركان الأرض .

إن الحرب كريهة وبشعة ، وهذا حق ..

والحرب تأكل الرجال ، وتقضي على الشيوخ والأطفال .. ومن هنا كانت كراهية الحرب ، وكراهية احتدام القتال .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله :

(كُتِبَ عليكمُ القتالُ وهو كرهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [1] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .

ثبت بالمراجع

رقم مسلسل	اسم الكتاب	المؤلف أو الناشر
١	القرآن الكريم	
٢	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	: محمد فؤاد عبد الباقي دار الشعب — مصر
٣	أسباب نزول القرآن للواحدي	: تحقيق الاستاذ أحمد صقر
٤	تفسير القرآن العظيم	: للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير دار الأندلس — بيروت
٥	تفسير الطبري	: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري دار المعارف — مصر
٦	الجامع لأحكام القرآن	: لأبيعبدالله محمد بن أحمد الأنصاريالقرطبي مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ ﻫ
٧	الدرّ المنثور	: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المكتبة الإسلامية — طهران
٨	في ظلال القرآن	: سيد قطب دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٣٨٦ ﻫ

رقم مسلسل	اسم الكتاب	المؤلف أو الناشر
٩	فتح الباري بشرح البخاري	للحافظ أبي الفضل العسقلاني المعروف بابن حجر
١٠	صحيح الإمام مسلم ، بشرح النووي	المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ – ١٩٢٩ م .
١١	مسند الإمام أحمد : شرح أحمد محمد شاكر	دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ
١٢	صحيح الترمذي ، بشرح ابن العربي	المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م
١٣	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : أ. ي. ونستك تعريب : محمد فؤاد عبد الباقي	مطبعة بريل في مدينة ليدن ١٩٦٢ م
١٤	الجامع الصغير : للإمام جلال الدين السيوطي	مطبعة البابي الحلبي – القاهرة
١٥	كشف الخفا ومزيل الإلباس : اسماعيل بن محمد العجلوني	مكتبة التراث الإسلامي – حلب – دار صادر – بيروت
١٦	تهذيب التهذيب : لابن حجر العسقلاني	دار صادر – بيروت
١٧	الكامل في التاريخ : لابن الأثير	دار صادر – بيروت ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م
١٨	البداية والنهاية : للحافظ ابن كثير	مكتبة بيروت ومكتبة النصر – الرياض

رقم مسلسل	اسم الكتاب	المؤلف أو الناشر
١٩	تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر الطبري	دار القلم الحديث — بيروت
٢٠	الطبقات الكبرى : ابن سعد	صيدا — دار بيروت ١٣٧٧ هـ
٢١	سيرة ابن هشام : تحقيق محيي الدين عبد الحميد	المكتبة التجارية — القاهرة
٢٢	الروض الأنف : عبد الرحمن السهيلي	دار الكتب الحديثة — القاهرة
٢٣	مروج الذهب : للمسعودي	دار الأندلس — بيروت ، مكتبة نهضة مصر
٢٤	الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لابن عبد البر	دار الأندلس — بيروت ، مكتبة نهضة مصر
٢٥	أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي	دار الفكر — بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٣ م
٢٦	خلفاء الرسول : خالد محمد خالد	دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م
٢٧	عبقريات عباس محمود العقاد	
٢٨	هذا هو الطريق : للدكتور عبد الرحمن عميرة	دار اللواء — الرياض
٢٩	مع الإلحاد وجهاً لوجه : للدكتور عبد الرحمن عميرة	دار الحلبي — القاهرة

رقم مسلسل	اسم الكتاب	المؤلف أو الناشر
٣٠	أشهر مشاهير الإسلام : رفيق العظم	
٣١	كتاب الأعلام : للزركلي	
٣٢	كتاب الأغاني : للأصفهاني	
٣٣	تاريخ الخلفاء : عبد الرحمن وجلال الدين السيوطي	مصر – ١٣٠٥ هـ
٣٤	تفسير الخازن والبغوي : المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ، والبغوي المسمى : معالم التنزيل	دار الفكر : بيروت – لبنان مصر ١٣٤٧ هـ
٣٥	تلبيس إبليس : لابن الجوزي	عني بنشره وقدّم له وخرّج أحاديثه : محمود مهدي الاستانبولي
٣٦	الروض الأنف : للإمام السهيلي	
٣٧	الرياض النضرة في مناقب العشرة : للمحب الطبري – مصر	
٣٨	سنن الترمذى : حققه وصححه عبد الرحمن عثمان	الناشر : محمد عبد المحسن الكتبي صاحب المكتبة السلفية – المدينة المنوّرة
٣٩	سنن الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني « ابن ماجة »	حقّقه ورقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م دار إحياء التراث العربي

فهرس الموضوعات